تَعَالَىٰ نَتُوبُ

بسم الله الرحمن الرحيم

اسم الكتاب: تعال نتوب
إعداد الشيخ : فيصل الحاشدي
رقم الإيداع: ٢٠١٩/١٦٧٨٧.
نوع الطباعة: لون واحد.
عدد الصفحات: ١٠٤.
القياس: ١٧×٢٤.

تجهيزات فنية:
مكتب دار الإيمان للتجهيزات الفنية
أعمال فنية وتصميم الغلاف أ/ يسري حسن.

٢٠١٩

الإدارة
دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٤٤٦٤٩٦

المبيعات
دار القمة لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - الإسكندرية.
تليفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ - ٥٢٢٢٠٠٢

E-mail
dar_aleman@hotmail.com

دار الإيمان المتحدة
أمام مستشفى الصوفي - أسفل مدارس اليمن الحديثة
مقابل بنك سبأ - شارع رداع - محافظة ذمار
جوال: ٧٧٥٣٠٩٩٣٥

تَعَالَ نَتُوبُ

تأليف
أبي عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي
عفا الله عنه

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٧٦٩

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط والسي دي
فاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٢٢٢٠٠٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحَمْدُ لله ربِّ العَالَمِيْن، والصَّلاةُ والسَّلامُ عَلَىٰ أَشْرَفِ المُرْسَلِيْن.

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَعْظَمَ الفَرَح وَأَكْملَهُ فَرَحُ المَوْلَىٰ -سُبْحَانَهُ وتَعَالَىٰ- بتَوْبَةِ عَبْدِهِ، فَفِي «الصَّحِيْحَيْن» مِنْ حَدِيْثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ رَسُول الله -صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِيْنَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَتِه بِأَرْضِ فَلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَىٰ شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ آيِسَ، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَةِ الفَرَحِ**».

إِنَّهَا لَمَنْقَبَةٌ عَزِيْزَةٌ، وَبِشَارَةٌ عَظِيْمَةٌ أَنْ يَفْرَحُ ـ رَبُّ العِزَّةِ وَالجَلالِ ـ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ هَذَا الفَرَحُ العَظِيْمُ.

وَهَلْ فِي سَائِرُ العِبَادَاتُ فَرَحٌ كَهَذَا ؟!!.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

(وَلَمْ يَجِئْ هَذَا الفَرَحُ فِي شَيْءٍ مِنَ الطَّاعَاتِ سِوَىٰ التَّوْبَةِ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ لِهَذَا الفَرَحِ تَأْثِيْرًا عَظِيمًا فِي حَالِ التَّائِبِ وَقَلْبِهِ، وَمَزِيْدٌ لا يُعَبِّرُ عَنْهُ.

وَهُوَ مِنْ أَسْرَارِ تَقْدِيْرِ الذُّنُوبِ عَلَىٰ العِبَادِ؛ فَإِنَّ العَبْدَ يَنَالُ بِالتَّوْبَةِ دَرَجَةَ المَحْبُوبِيَّةِ، فَيَصِيْرُ حَبِيْبًا لله، فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَابِيْنَ، وَيُحِبُّ العَبْدَ المُفْتَنُ التَّوّابَ).

إِنَّ اسْتِقْصَاءَ الفَوَائِدِ وَالمَسَارَ فِي التَّوْبَةِ يَحْتَاجُ إِلَىٰ سَفَرٍ جَلِيلٍ، وَيَكْفِي مِنْ القَلادَةَ مَا أَحَاطَ بِالعُنُقِ، وَمِنَ الزَّادِ مَا يَبْلُغُ المَحَلَّ، بَلْ هِيَ أَعْظَمُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهَا غرٌ لِلجَمْعِهَا شَرَائِعُ الدِّينِ خَيْرُ جَمْعٍ، وَحَاجَةُ النَّاسِ إِلَيْهَا كَحَاجَتِهِمْ إِلَىٰ المَاءِ والهَوَاءِ، بَلْ أَشَدُّ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

(لَوْلاَ أَنَّ التَّوْبَةِ اسْمٌ جَامِعٌ لِشَرَائِعِ الإِسْلامِ، وَحَقَائِقِ الإِيْمَانِ لَمْ يَكُنْ الرَّبُّ ـ تَعَالَىٰ ـ يَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ذَلِكَ الفَرَحَ العَظِيْمَ، فَجَمِيْعَ مَا يَتَكَلَّمُ فِيْهِ النَّاسُ مِنَ المَقَامَاتِ وَالأَحْوَالِ هُوَ تَفَاصِيْلُهَا وَآثَارُهَا).

وَأَنِّي لَمَّا رَأَيْتُ تَقْصِيرَ كَثِيْرٍ مِنَ النَّاسِ فِي هَذِهِ الشَّعِيرَةِ العَظِيْمَةِ كَتَبْتُ هَذِهِ الرِّسَالَةَ رَاجِيًا مِنَ اللهِ أَنْ يَنْفَعَ بِهَا وَيَجْعَلَهَا خَالِصَةً لِوَجْهِهِ الكَرِيْمِ، وَيَغْفِرَ لِي وَلِوَلِدَيَّ وَلِجَمِيْعِ المُسْلِمِيْنَ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ

تأليف

أبو عبد الله فيصل بن عبده قائد الحاشدي

عفا الله عنه

تَعْرِيفُ التَّوْبَةِ

١ـ تَعْرِيفُ التَّوْبَةِ فِي اللُّغَةِ:

التَّوْبَةُ مَصْدَرُ قَوْلِكَ: تَابَ يَتُوبَ وَهُوَ مَأخوذٌ مِنْ مَادَّةِ (تَ وَبَ) الَّتِّي تَدُلُّ على الرُّجُوعِ، يُقَالُ: تَابَ مِنْ ذَنْبِه، أَيْ رَجَعَ عَنْهُ تَوْبَةً وَمَتاباً، وَالْوَصْفُ مِنْهُ تَائِبٌ، والتَّوْبُ: تَرْكُ الذَّنْبِ على أَجْمَلِ الْوُجُوه، وَهُو أَبْلَغُ الاعْتِذَارِ؛ فإن الاعتذار؛ على ثَلاثَةِ أَوْجُهٍ:

إِمَّا أَنْ يَقُولُ الْـمُعْتَذِرُ: لَمْ أَفْعَلْ.

أو يقولَ فَعَلْتُ لأَجْلِ كَذَا .

أو يَقُولَ: فَعَلْتُ وأَسَأْتُ وَقَدْ أَقْلَعْتُ، ولاَ رَابِعَ لِذَلِكَ،وَهَذَا الأَخِيرُ هُوَ التَّوْبَةُ،يُقَالُ تَابَ إِلىٰ اللهِ، أَيْ تَذَكَّرَ ما يَقْتَضِي الإِنَابَة، نحو قَوْلِهِ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [النور: ٣١].

أَيْ عُودُوا إِلىٰ طَاعَتِهِ وأَنِيبُوا إِلَيْه.

ويُقَالُ: تَابَ اللهُ عَلَيْهِ أَيْ قَبِلَ مِنْهُ التَّوْبَةَ.

والتائِبُ يُقالُ لِبَاذِلِ التَّوْبَة وَيقَابِل التَّوْبَة، فَالْعَبْدُ تَائِبٌ إِلىٰ الله، واللهُ تائِبٌ عَلَىٰ عَبْده، والتَّوَّابُ:الْعَبْدُ الْكَثِيرُ التَّوْبَة. وَذَلكَ بتَرْكِه كُلَّ وَقْت بَعْضَ الذُّنُوبِ عَلَىٰ التَّرْتِيبِ حتَّىٰ يَصِيرَ تَارِكاً لِجَمِيعه،وقَدْ يُقَالُ للهِ سُبْحَانَهُ

وتَعَالَىٰ – ذَلِكَ (أَيْ: تَوَّابٌ)وذَلِكَ لِكَثْرَةِ قَبُولِهِ تَوْبَةَ الْعِبَادِ حَالًا بَعْدَ حَال، وَالْـمَتَابُ في قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٧١].

يُقْصَدُ بِهِ التَّوْبَةُ التَّامَّةُ وَهِيَ الْـجَمْعُ بَيْنَ تَرْكِ الْقَبِيحِ وتَحَرِّي الجَمِيْل [١].

٢ـ تَعْرِيْفُ التَّوْبَةِ فِي الشَّرْعِ:

قَالَ الرَّاغِبُ: التَّوْبَةَ في الشَّرْعِ: تَرْكُ الذَّنْبِ لِقُبْحِه، والنَّدَمُ عَلَىٰ مَا فَرَّطَ مِنْهُ وَالعَزِيْمَةُ عَلَىٰ تَرْكِ المُعَاوَدَةِ، وَتَدَارُكُ مَا أَمْكَنَهُ أَنْ يَتَدَارَكَ مِنْ الأَعْمَالِ بِالإِعَادَةِ» [٢].

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللَّه ـ:

(فَحَقِيْقَةُ التَّوْبَةِ هِيَ النَّدَمَ عَلَىٰ مَا سَلَفَ مِنْهُ فِي المَاضِي، وَالإِقْلاعِ عَنْهُ فِي الحَالِ، العَزْمُ عَلَىٰ أَلاَّ يُعَاوِدَهُ فِي المُسْتَقْبَلِ) [٣].

وَقَالَ ابْنُ سَعْدِيّ ـ رَحِمَهُ اللَّه ـ:

(التَّوْبَةُ هِيَ: الرُّجُوعِ إِلَىٰ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا إِلَىٰ مَا يُحِبُّهُ اللهِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا» [٤].

---

(١) انْظُر: مَقَايِيسُ اللُّغَة (١٠/ ٣٥٧)، وَمُفْرَادَاتُ الرَّاغِب (٧٥)، لِسَانَ العَرَبِ (١/ ٤٥٤).
(٢) مُفْرَدَاتُ الرَّاغُب (٧٦).
(٣) مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ (١/ ١٩٩).
(٤) مُلْحَق فِي آخِر التَّفْسِير (١١١٤).

الفَصْلُ الأَوَّل

حُكْمُ التَّوْبَةِ

التَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ وُجُوبًا عَيْنِيًّا، دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ والإجْمَاعُ.

أَمَّا الكِتَابُ:

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النور:٣١].

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا ﴾ [التحريم:٨].

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [المائدة: ٧٤].

وَحَثَّ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ - عَلَىٰ التَّوْبَةِ وَرَغَّبَ فِيْهَا، وَحَذَّرَ مِنَ القُنُوطِ؛ لأَنَّهُ بُرَيْدٌ إِلىٰ الكُفْرِ. فَقَالَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزُّمَر: ٥٣].

وَفِي «صَحِيْحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيْثِ أَبِي مُوسَىٰ الأَشْعَرِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أَنَّ

رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «**إِنَّ اللهَ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيْءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيْءُ اللَّيْلِ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**» (١).

وَفِي «صَحِيْحِ مُسْلِمٍ»، وَ«سُنَنُ ابْنُ مَاجَةِ» مِنْ حَدِيْثِ رِفَاعَةَ الْجَهْنِيِّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**إِنَّ اللهَ يُمْهِلُ حَتَّىٰ إِذَا ذَهَبَ مِنَ اللَّيْلِ نِصْفُهُ أَوْ ثُلُثَاهُ قَالَ: لاَ يَسْأَلَنَّ عِبَادِي غَيْرِي، مَنْ يَدْعُنِي أَسْتَجِبُ لَهُ،وَمَنْ يَسْأَلُنِي أَعْطِهِ، مَنْ يَسْتَغْفِرْنِي أَغْفِرُ لَهُ، حَتَّىٰ يَطْلُعُ الفَجْرُ**» (٢).

وَفِي «سُنَنِ ابْنَ مَاجَةِ» مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّىٰ تَبْلَغَ خَطَايَاكُمْ السَّمَاءَ ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ اللهُ عَلَيْكُمْ**» (٣).

وَأَمَّا السُّنَّةُ:

فَفِي «صَحِيْحِ مُسْلِمٍ» مِنْ حَدِيْثِ الأَغَرِّ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- :«**يَاأَيُّهَا النَّاسُ ! تُوبُوا إِلَىٰ اللهِ؛ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**» (٤).

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٥٩) .
(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٧٥٨)، وابْنُ مَاجَةْ (١٣٦٧)،وَاللَّفْظُ لَهُ .
(٣) (حَسَنٌ صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَة (٤٢٤٨) ، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيْحَةِ (٩٠٣) .
(٤) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٢) .

وأَمَّا الإِجْمَاعُ:

فَقَدْ نَقَل الإِجْمَاعَ غَيْرَ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ.

قَالَ القُرْطُبِيّ ـ رَحِمَهُ اللّهُ ـ:

(وَاتَّفَقَتْ الأُمَّةُ، عَلَىٰ أَنَّ التَّوْبَـةَ فَـرْضٌ عَلَـىٰ المُؤْمِنِيْنَ) [١].

وَقَـالَ: (وَلا خِـلافَ بَـيْنَ الأُمَّـةِ فِي وُجُـوبِ التَّوْبَةَ، وأَنَّهَا فَرْضٌ مُتَعَيِّنٌ) [٢].

وَقَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ـ رَحِمَهُ اللّهُ ـ:

«وَلا بُدَّ لِكُلِّ عَبْدٍ مِنْ تَوْبَةٍ، وَهِيَ وَاجِبَةٌ عَلَىٰ الأَوَّلِيْنَ وَالآخِرِيْنَ» [٣].

---

(١) «الجَامِعُ لأَحْكَامِ القُرآنِ» (٥/ ٩٠).
(٢) «المَرْجِعُ السَّابِقُ».
(٣) «مَجْموعُ الفَتَاوَىٰ» (١٠/ ٣١٠).

مَتَىٰ تَجِبُ التَّوْبَةُ ؟

التَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ عَلَىٰ الفَوْرِ:

قَدْ يُذْنِبُ الرَّجُلُ وَيَقَعُ فِى الذُّنُوبِ، وَيَعْلَمُ حُرْمَةَ مَا وَقَعَ فِيْهِ، وَلَكِنَّهُ يُؤَجِّلَ التَّوْبَةَ وَيُسَوِّفُ فِيْهَا، وَكُلَّمَا وَرَدَتْ عَلَىٰ الخَاطِرِ قَابَلَ ذَلِكَ بِفِكْرٍ فَاتِرٍ.

وَهَذِهِ دَفَائِنُ سُوءٍ تَحْتَاجُ إِلىٰ مِنْقَاشِ المُجَاهَدَةِ عَلَىٰ مَوْقِدِ الخَشْيَةِ؛ حَتَّىٰ تَدْمَعَ العَيْنَ مِنْ الغَلَيَانِ عَلَىٰ نِيْرَانِ الذُّنُوبِ فَتُطْفِئُهَا.

وَالبَصِيْرُ العَاقِلُ يَعْلَمُ أَنَّ أَوَامِرَ اللهِ تَجِبُ عَلَىٰ الفَوْرِ وَمِنْهَا التَّوْبَةِ، كَمَا أَنَّ تَأْخِيْرَهَا ذَنْبٌ يَجِبُ أَنْ يُسْتَغْفَرَ مِنْهُ.

قَالَ ابْنُ الجَوْزِيُّ -رَحِمَهُ اللهُ-:

(الوَاجِبُ عَلَىٰ العَاقِلِ أَنْ يَحْذَرَ مَغَبَّةَ المَعَاصِي؛ فَإِنَّ نَارَهَا تَحْتَ الرَّمَادِ، وَرُبَّمَا تَأَخَّرَتْ العُقُوبَةُ فَجْأَةَ، وَرُبَّمَا جَاءَتْ مُسْتَعَجَلَةٌ؛ فَلْيُبَادِرُ بِإِطْفَاءِ مَا أَوْقَدَ مِنْ نِيْرَانِ الذُّنُوبِ، وَلا مَاءٌ يُطْفِيءُ تِلْكَ النَّارِ، إلا مَا كَانَ دَمْعِ العَيْنِ.

لَعَلَّ خَصْمَ الجَزَاءِ يَرْضَى قَبْلَ أَنْ يُبِتَّ الحَاكِمُ فِي حُكْمِه) (١).

وَقَالَ: (يَا بَطَّالُ إِلىٰ كَمْ تُؤَخِّرُ التَّوْبَةَ، وَمَا أَنْتَ فِي التَّأْخِيْرِ مَعْذُورٌ ؟، إِلىٰ مَتَىٰ يُقَالُ عَنْكَ: مَفْتُونٌ مَغْرُورٌ ؟ يَا مِسْكِيْنُ ! قَدْ أُنْفِقَتْ أَشْهُرِ الخَيْرِ

---

(١) « الذُّنُوبُ وَأَثَرُهَا » لابْنِ الجَوْزِيِّ ، (ص٨١) .

وَأَنْتَ تَعُدُّ الشُّهُورَ، أَتَرَىٰ مَقْبُولٌ أَنْتَ أَمْ مَطْرُودٌ ؟، أَتَرَىٰ مُواصِلٌ أَنْتَ أَمْ مَهْجُورٌ؟، أَتَرَىٰ تَرْكَبُ النُّجبَ غدًا، أَمْ أَنْتَ عَلَىٰ وَجْهِكَ مَجْرُورٌ ؟، أَتَرَىٰ مِنْ أَهْلِ الجَحِيْمِ أَنْتَ أَمْ مِنْ أَرْبَابِ القُصُورِ؟) [١].

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللّهُ ـ:

(المُبَادَرَةُ إِلَىٰ التَّوْبَةِ مِنْ الذَّنْبِ فَرْضٌ عَلَىٰ الفَوْرِ، وَلا يَجُوزُ تَأْخِيْرُهَا، فَمَتَىٰ أَخَّرَهَا عَصَىٰ بالتَّأَخَّرِ، فَإِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ بَقِيَ عَلَيْهِ تَوْبَةٌ أُخْرَىٰ، وَهِيَ تَوْبَةٌ مِنْ تَأْخِيْرِ التَّوْبَةِ.

وَقَلَّ أَنْ تَخْطُرُ هَذِه بِبَالِ التَّائِبِ، بَلْ عِنْدَهُ أَنَّهُ إِذَا تَابَ مِنَ الذَّنْبِ لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ شَيْءٌ آخَر، وَقَدْ بَقَىٰ عَلَيْهِ التَّوْبَةَ مِنْ التَّوْبَةِ) [٢].

(١) « بَحْرُ الدُّمُوعِ » لابْنِ الجَوْزِيّ، (ص٥٧).
(٢) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ (١٠/ ٢٨٣).

الفَصْلُ الثَّاني

فَضَائِلُ التَّوْبَةِ وَأَهَمّيَتُهَا

لِلتَّوْبَةِ فَضَائِلُ عَزِيْزَةٌ، وَمَزَايَا مُتَعَدِّدَةٌ، وَفَوَائِدُ جَلِيْلَةٌ، فَمِنْهَا :

١ - أَنَّهَا سَبَبٌ لِنَيْلِ مَحَبَّةِ اللّٰهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ:

قَالَ اللهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ–: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة:٢٢٢].

فَقَدْ أَخْبَرَ اللهَ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ– بِحُبِّهِ التَّوَّابِيْنَ الَّذِيْنَ يُدَاوِمُونَ عَلَىٰ التَّوْبَةِ، وَيَتَنَزَّهُونَ عَنِ الذُّنُوبِ، وَيَكْفَىٰ التَّائِبُ بِذَلِكَ فَخْرًا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ يُحِبُّهُم الله، وَلُو لَمْ يَكُنْ إِلاَّ هَذِهِ الفَضِيْلَةُ لَكَانَ فِيْهَا الكِفَايَةُ؛ فَكَيْفَ وَفَضَائِلَهَا جَمَّةٌ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللّٰهُ ـ:

(وَلَوْ لَمْ تَكُنِ التَّوْبَةُ أَحَبَّ الأَشْيَاءِ إِلَيْهِ لَمَّا ابْتَلِي بِالذَّنْبِ أَكْرَمَ الخَلْقِ عَلَيْهِ، فَلَمَحَبَّتِه لِتَوْبَةِ عَبْدِهِ ابْتَلاهُ بِالذَّنْبِ الَّذِي يُوجِبُ وقُوعَ مَحْبُوبِهِ مِنَ التَّوْبَةِ وَزِيَادَةَ مَحَبَّتِهِ لِعَبْدِهِ، فَإِنَّ لِلتَّائِبِيْنَ عِنْدَهُ مَحَبَّةٌ خَاصَّةٌ) [١].

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ» (١/ ٣٠٦) .

٢ - أَنَّهَا سَبَبٌ لِلْفَلاحِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ:

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور:٣١].

فَقَدْ دَلَّتْ الآيَةُ الكَرِيْمَةُ أَنَّ لا سَبيْلَ إِلىٰ الفَلاحِ إِلَّا بالتَّوْبَة، وَالمُؤْمِنُ لاَ يَنْشَرِحُ وَيَتَذَوّقُ السَّعَادَةَ إِلَّا حِيْنَ يَتُوبَ إِلىٰ اللهِ مِنْ جَمِيْعِ الذُّنُوبِ ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ وَرَجَاءَ ثَوَابِهِ.

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ -رَحِمَهُ اللهُ-:

(فَالقَلْبُ لاَ يَصْلُحُ، وَلا يَفْلَحُ، وَلاَ يَتَلَذَّذُ، وَلاَ يُسَرُّ، وَلا يَطِيْبُ، وَلاَ يَسْكُنُ، وَلا يَطْمَئِنَّ إِلَّا بِعِبَادَةِ رَبِّهِ وَحُبِّهِ وَالإِنَابَةِ إِلَيْهِ) [(١)].

وَفِي «صَحِيْحِ البُخَارِيِّ» مِنْ حَدِيْثِ أَبِي سَعِيْدٍ الخُدَرِيّ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**كَانَ فِي مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تَسْعَةً وَتِسْعِيْنَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ؛ فَدُلَّ عَلَىٰ رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تَسْعَةً وَتِسْعِيْنَ نَفْسًا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟. قَالَ: لا. فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مَائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ؛ فَدُلَّ عَلَىٰ رَجُلٍ عَالِمٍ،فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مَائَةَ نَفْسٍ؛ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟، قَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلىٰ أَرْضِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ فِيْهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ فَاعْبُدْ اللهَ مَعَهُمْ، وَلا تَرْجِعُ إِلىٰ أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ، فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ إِذَا نَصُفَ**

(١) الفَتَاوَىٰ الكُبْرَىٰ »» (٥/ ١٨٨) .

الطَّرِيْقُ أَتَاهُ المَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيْهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةُ وَمَلائِكَةُ العَذَابِ، فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَىٰ اللهِ. وَقَالَتْ مَلائِكَةُ العَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ عَلَىٰ صُوْرَةِ آدَمِيّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِيْسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ، فَإِلَىٰ أَيَّتُهُمَا كَانَ أَدْنَىٰ فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ إِلَىٰ الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ» .

فَهَذَا الرَّجُلُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطّ، لَكِنْ حِيْنَ تَابَ أَفْلَحَ وَسَعُدَ.

٣ - أَنَّهَا سَبَبٌ لِتَبْدِيْلِ السَّيِئَاتِ حَسَنَاتٍ:

إِذَا حَسُنَتْ التَّوْبَةُ وَأَخْلَصَ صَاحِبُهَا فِي تَوْبَتِهِ بَدَّلَ اللهُ سَيِّئَاتِهِ حَسَنَاتٍ، تُبَدّلُ نَفْسَ سَيِّئَاتِهِ الَّتِي عَمِلَهَا.

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٧٠ ﴾ [الفرقان: ٧٠].

إِنَّهَا بِشَارَةٌ عَظِيْمَةٌ لِلتَّائِبِيْنَ أَنْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُ مَكَانَ كُلَّ سَيِّئَةٍ عَمِلَهَا حَسَنَةً إِذَا حَسُنَتْ تَوْبَتُهُ، وَقَدْ جَاءَ ذَلِكَ فِي حَدِيْثِ الرَّجُلِ الَّذِي حَاسَبَهُ اللهُ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِ.

فَفِي «صَحِيْح مُسْلِم» (١) مِنْ حَدِيْث أَبِي ذَرٍّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : **«إِنِّي لأَعْلَمُ آخرُ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُوْلاً الجَنَّةِ،**

---

(١) «رَوَاهُ مُسْلِمٌ» (١٩٠).

وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوْجًا مِنْهَا، رَجُلٍ يُؤْتَىٰ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا [1]، فَتُعْرَضَ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ. فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، كَذَا وَكَذَا وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وكَذَا، كَذَا وكَذَا.

فَيَقُولُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لا أَرَاهَا هَا هُنَا».

فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ضَحِكَ حَتَّىٰ بَدَتْ نَوَاجِذُهُ.

٤ - أَنَّهَا سَبَبٌ لِتَكْفِيرِ السَّيِئَاتِ وَدُخُولِ الجَنَّةِ:

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ﴾ [التحريم:٨].

---

(١) فِي هَذَا دَلِيْلٌ عَلَىٰ تَقْسِيْمِ الذُّنُوبِ إِلَىٰ كَبَائِرَ وَصَغَائِرَ، وَقَدْ دَلَّ عَلَىٰ ذَلِكَ الكِتَابُ والسُّنَّةُ والإِجْمَاعُ.
أَمَّا الكِتَابُ: فَقَوْلُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ ﴾ [النِّسَاء: ٣١].
وأَمَّا السُّنَّة: فَفِي «صَحِيْحِ مُسْلِمٌ» (٣٣٢) مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**الصَّلاَةُ الْخَمْسُ وَالْجُمْعَةُ إِلَى الجُمْعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ مَا لَمْ تُغْشَ الْكَبَائِرُ**».
وَقَدْ أَشَارَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ- فِي الجَوابِ الكَافِي إِلَىٰ الإِجْمَاعِ (ص٣٠٦)، فَقَالَ: وَقَدْ دَلَّ القُرآنُ والسُّنَّةُ وإِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِيْنَ بَعْدَهُمْ وَالأَئِمَةُ عَلَىٰ أَنَّ الذُّنُوبَ كَبَائِرَ وَصَغَائِرَ».
وَقَدْ قِيلَ فِي تَعْرِيْفِ الصَّغَائِرِ والكَبَائِرِ أَقْوَالٌ، وَلَعَلَّ أَحْسَنَهَا هُوَ مَا رَجَّحَهُ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَة -رَحِمَهُ اللهُ- «كُلُ مَا تَرَتَّبَ عَلَيْهِ حَدٌّ فِي الدُّنْيَا، أَوْ وَعِيْدٌ فِي الآخِرَةِ -فَهُوَ كَبِيْرَة، وَمَا لَمْ يَتَرَتَّبْ عَلَيْهِ لا هَذَا وَا هَذَا فَهُوَ صَغِيْرَةٌ» انْتَهَىٰ مِن الفَتَاوَىٰ (١١/ ٦٥٠).

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

وَفِي «صَحِيْح مُسْلِم»، مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْـرَةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**يَضْحَكُ اللهُ لِرَجُلَيْنِ، يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ، كَلاهُمَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ**». قَالوا: كَيْفَ يا رَسولَ اللهِ ؟، قَالَ: «**يُقْتَلُ هَذَا فَيَلِجُ الجَنَّةَ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَىٰ الآخَرِ، يَهْدِيَهُ إِلىٰ الإِسْلامِ ثُمَّ يُجَاهِدُ فِي سَبِيْلِ اللهِ فَيُسْتَشْهَدُ**» (١).

٥ - أَنَّهَا سَبِيْلُ النَّجَاةِ مِنَ الظُّلْمِ:

النَّجَاةُ مِنْ ظُلْمِ النَّفْسِ والظُّلْمِ لِلنَّاسِ يَحْصُلُ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَتَارِكُ التَّوْبَةِ وَاقِعٌ فِي الظُّلْمِ لا مَحَالَة.

قَالَ ابْنُ القَيِّم -رَحِمَهُ اللهُ-:

(قَسَّمَ العِبَادَ إِلىٰ تَائِب وَظَالِم، وَمَا ثَمَّ قِسْمٌ ثَالِثٌ أَلْبَتَّة، وَأَوْقَعَ الظَّالِمَ عَلىٰ مَنْ لَمْ يَتُبْ، وَلا أَظْلَمَ مِنْهُ لِجَهْلِهِ بِرَبِّهِ، وَبِحَقِّهِ، وَبِعَيْبِ نَفْسِهِ، وَآفَاتِ

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٨٩٠).

عَمَلِه»[١].

٦ - أَنَّهَا سَبَبٌ لِسَلامَةِ القَلْبِ وَنَقَائِه:

الذُّنُوْب سَبَبٌ لِرَانِ القَلْبِ وَصَدَائِه، وَالتَّوْبَةُ سَبَبٌ لِصَفَاءِ القَلْب وَنَقَائه، لِهَذَا كَانَتْ حَاجَةُ العَبْدِ إِلَىٰ التَّوْبَةِ مِنَ الذُّنُوب أَحْوَجُ إِلَىٰ غَيْرِهَا مِنَ الأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ؛ لأَنَّ الثَّوْبَ الوَسِخ أَحْوَجُ إِلَىٰ الصَّابُونِ مِنْهُ إِلَىٰ كَثِيْرٍ مِنْ المَاءِ.

فَفِي «سُنَنُ التِّرْمِذِّيّ» مِنْ حَدِيْث أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٤﴾ [المطففين:١٤]»[٢].

٧ - أَنَّهَا سَبَبٌ لِدُعَاءِ المَلائِكَةِ وَاسْتِغْفَارِهِمْ:

مَا أَعْظَمَهَا مِنْ نِعْمَةٍ أَنْ تَجِدَ مَلائِكَةَ الرَّحْمَةِ يَسْتَغْفِرُونَ لَكَ مَا دُمْتَ رَاجِعًا إِلَىٰ اللهِ، تَائِبًا مِنْ الشِّرْكِ وَالمَعَاصِي، مُنِيْبًا إِلَيْهِ، مُتَّبِعًا سَبِيْلَهُ، قَالَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً**

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ» (١/ ١٩٩).
(٢) «حسَنٌ»، أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِّيّ (٣٥٦٩)، وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيّ فِي التَّرْغِيْبِ والتَّرْهِيْب (٢/ ٢٦٨).

وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ [غافر: ٧].

قَالَ الإمَامُ البِقَاعِيّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في تَفْسِيرِهِ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ ﴾ أَيْ رَجَعُوا إِلَيْكَ عَنْ ذُنُوبِهِمْ، بِرَحْمَتِكَ لَهُمْ، بِأَنْ تَمْحُوا أَعْيَانَهَا وَآثَارَهَا؛ فَلاَ عِقَابَ، وَلا عِتَابَ، وَلا ذِكْرَ لَهَا [١].

٨ - أَنَّهَا سَبَبٌ لِلْفَرَحِ العَظِيْمِ:

فَفِي «الصَّحِيْحَيْنِ» مِنْ حَدِيْثِ عَبْد الله بْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مُنْزَلاً وَبِهِ مَهْلَكَةٌ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ، عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حتَّىٰ إذا اشتدَّ عَلَيْهِ الحرُّ والْعَطَشُ، أَوْ ما شَاءَ اللهُ، قَالَ: أَرْجِعُ إلى مكاني فَرَجَعَ فنامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فإذَا رَاحِلْتُهُ عِنْدَهُ**» [٢].

وَفي «رِوَايَةٍ لِمُسْلِم» مِنْ حَدِيْث أَنَس بْنِ مَالِكٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتَوْبَةِ عَبْدِه حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَىٰ رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ، فَانْفَلَتَتْ، وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَآيَسَ مِنْهَا، فَأَتَىٰ شَجَرَةً فاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ آيَسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ**

(١) «نَظْمُ الدّرَرِ فِي تَنَاسُبِ الآيَاتِ والسُّوَرِ» (١٧/ ١٤).
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٣٠٩) وَمُسْلِمٌ (٢٧٤٤).

أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»[(١)].

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

«الفَرْحَةُ الَّتِي تَحْصُلُ بِالتَّوْبَةِ فَرْحَةٌ عَجِيبَةٌ، لا نِسْبَةٌ لِفَرْحَةِ المَعْصِيَةِ إِلَيْهَا الْبَتَّة. فَلَوْ عَلِمَ العَاصِي أَنَّ لَذَّةَ التَّوْبَةِ وَفَرْحَتَهَا تَزِيْدُ عَلَىٰ لَذَّةِ المَعْصِيَةِ وَفَرْحَتِهَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً لَبَادَرَ إِلَيْهَا أَعْظَمَ مِنْ مُبَادَرَتِهِ إِلَىٰ لَذَّةِ المَعْصِيَةِ»[(٢)].

وَسِرُّ هَذَا الفَرَحِ إِنَّمَا يَعْلَمُهُ مَنْ عَلِمَ سِرَّ فَرَحِ الرَّبِّ - تَعَالَىٰ - بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ أَشَدَّ فَرَحٍ يُقَدَّرُ، وَلَقَدْ ضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَثَلاً لَيْسَ فِي أَنْوَاعِ الفَرَحِ فِي الدُّنْيَا أَعْظَمَ مِنْهُ، وَهُوَ فَرَحُ رَجُلٍ قَدْ خَرَجَ بِرَاحِلَتِهِ الَّتِي عَلَيْهَا، طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فِي سَفَرٍ؛ فَفَقَدَهَا فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مُهْلِكَةٍ، فَاجْتَهَدَ فِي طَلَبِهَا فَلَمْ يَجِدْهَا، فَيَئِسَ مِنْهَا؛ فَجَلَسَ يَنْتَظِرُ المَوْتَ؛ حَتَّىٰ إِذَا طَلَعَ البَدْرُ رَأَى فِي ضَوْئِهِ رَاحِلَتَهُ، وَقَدْ تَعَلَّقَ زِمَامُهَا بِشَجَرَةٍ، فَقَالَ مِنْ شِدَّةِ فَرَحِهِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ، فَاللهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ[(٣)].

وَقَالَ - رَحِمَهُ اللهُ -: (فَمَا يُنْكَرُ أَنْ يَحْصُلَ لِلتَّائِقِ نَصِيبٌ مِنَ الفَرَحِ بِالتَّوْبَةِ، وَلَكِنْ هَا هُنَا أَمْرٌ يَجِبُ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ؛ وَهُوَ أَنَّهُ لاَ يَصِلُ إِلَىٰ ذَلِكَ إِلَّا بَعْدَ تَرَحَاتٍ وَمُضَضٍ وَمِحَنٍ، لاَ تَثْبُتُ لَهَا الجِبَالُ، فَإِنْ صَبَرَ لَهَا ظَفَرَ بِلَذَّةِ الفَرَحِ،

---

(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (١٦٦٣).
(٢) «شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَىٰ صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٧/ ٢١٩).
(٣) «شَرْحُ النَّوَوِيِّ عَلَىٰ صَحِيحِ مُسْلِمٍ (١٧/ ٢١٩).

وَإِنْ ضَعُفَ عَنْ حَمْلِهَا وَلَمْ يَصْبِرْ لَهَا لَمْ يَظْفَرْ بِشَيءٍ، وَآخِرُ أَمْرِهِ فَوَاتَ مَا آثَرَهُ مِنْ فَرْحَةِ المَعْصِيَةِ وَلَذَّتِهَا، فَيَفُوتُهُ الأَمْرَانِ، وَيَحْصُلُ عَلَىٰ ضِدِّ اللَّذَّةِ مِنَ الأَلَمِ المُرَكَّبِ مِنْ وُجُودِ المُؤْذِي، وَفَوْتِ المَحْبُوبِ، فَالْحُكْمُ للهِ العَلِيِّ الكَبِيرِ[1].

وَهَا هُنَا فَرْحَةٌ أَعْظَمَ مِنْ هَذا كُلِّهِ ، وَهِيَ فَرْحَةٌ عِنْدَ مُفَارَقَتِهِ الدُّنْيَا إِلَىٰ اللهِ ، إِذَا أَرْسَلَ إِلَيْهِ المَلائِكَةَ فَبَشَّرُوهُ بِلِقَائِهِ ، وَقَالَ لَهُ مَلَكُ المَوْتِ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ كَانَتْ فِي الجَسَدِ الطَّيِّبِ، أَبْشِرِي بِرُوحٍ وَرَيْحَانٍ وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانٍ ، اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ ، ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾

[الفَجْرُ: ٢٧-٣٠].

فَلَوْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ يَدَيْ التَّائِبِ إِلَّا هَذِهِ الفَرْحَةِ وَحْدَهَا لَكَانَ العَقْلُ يَأْمُرُ بِإِيثَارِهَا، فَكَيْفَ وَمِنْ بَعْدَهَا أَنْوَاعٌ مِنَ الفَرَحِ:

مِنْهَا: صَلاةُ المَلائِكَةِ الَّذِيْنَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ عَلَىٰ رُوحِهِ.

وَمِنْهَا: فَتْحُ أَبْوَابِ السَّمَاءِ لَهَا وَصَلاةَ مَلائِكَةِ السَّمَاءِ عَلَيْهَا، وَتَشْيِيع مُقَرَّبِيهَا لَهَا إِلَىٰ السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ فَتُفْتَحُ وَيُصَلِّي عَلَيْهَا أَهْلُهَا وَيُشَيِّعُهَا مُقَرَّبُوهَا هَكَذَا إِلَىٰ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَكَيْفَ يُقَدَّرُ فَرَحُهَا وَقَدْ اسْتُؤْذِنَ لَهَا عَلَىٰ رَبِّهَا وَوَلِيِّهَا وَحَبِيبِهَا، فَوَقَفَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَذِنَ لَهَا بِالسُّجُودِ فَسَجَدَتْ،ثُمَّ سَمِعَتْهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ وَيَقُولُ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي عِلِّيِينَ، ثُمَّ يُذْهَبُ بِهِ فَيُرَىٰ الجَنَّةَ وَمَقْعَدَهُ

(١) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ » (٤/ ٨٨) .

فِيْهَا، وَمَا أَعَدَّ اللهُ لَهُ وَيَلْقَىٰ أَصْحَابَهُ وَأَهْلَهُ فَيَسْتَبْشِرُونَ بِهِ وَيَفْرَحُوْنَ، وَيَفْرَحُ بِهِمْ فَرَحَ الغَائِبِ يَقْدِمُ عَلَىٰ أَهْلِهِ فَيَجِدُهُمْ عَلَىٰ أَحْسَنِ حَالٍ، وَيَقْدُمُ عَلَيْهُمْ بِخَيْرِ مَا قَدِمَ بِهِ مُسَافِرٌ.

هَذَا كُلُّهُ قَبْلَ الفَرَحِ الأَكْبَرَ ـ يَوْمَ حَشْرِ الأَجْسَامِ ـ بِجُلُوسِهِ فِي ظِلِّ العَرْشِ، وَشُرْبِهِ مِنَ الحَوْضِ، وَأَخْذَ كِتَابَهُ بِيَمِيْنِهِ، وَثِقَلِ مِيْزَانِهِ، وَبَيَاضِ وَجْهِهِ، وإِعْطَائِهِ النُّورَ التَّامَّ وَالنَّاسُ فِي الظُّلْمَةِ، وَقَطْعِهِ جِسْرَ جَهَنَّمَ بِلاَ تَعْوِيْقٍ وَانْتِهَائِهِ إِلَىٰ بَابِ الجَنَّةِ وَقَدْ أُزْلِفَتْ لَهُ فِي المَوْقِفِ، وَتَلَقِّي خَزَنَتُهَا لَهُ بِالتَّرْحِيْبِ وَالسَّلامِ وَالبِشَارَةِ، وَقُدُوْمِهِ عَلَىٰ مَنَازِلِهِ وَقُصُورِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَسَرَارِيْهِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ فَرَحٌ آخَرٌ لاَ يُقْدرَ قَدْرُهُ، وَلا يُعَبِّرُ عَنْهُ تَتَلاَشَىٰ هَذِهِ الأَفْرَاحُ كُلُّهَا عِنْدَهُ، وإِنَّمَا يَكُونُ هَذَا لأَهْلِ السُّنَّةِ المُصَدِّقِيْنَ بِرُؤْيَةِ وَجْهِ رَبِّهِمْ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ مِنْ فَوْقِهِمْ، وَسَلامَةً عَلَيْهِمِ، وَتَكْلِيْمِهِ إِيَّاهُمْ، وَمُحَاضَرَتِهِ لَهُمْ) (١).

(١) «الرَّوْحُ»، (٢٩٨ – ٢٩٩).

سِرُّ فَرَحِ اللّه بِتَوْبَةِ العَبْدِ

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللّهُ-:

(فَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- اخْتَصَّ نَوْعَ الإِنْسَانِ مِنْ بَيْنَ خَلْقِه بِأَنَّهُ كَرَّمَهُ وَفَضَّلَهُ، وَشَرَّفَهُ، وَخَلَقَهُ لِنَفْسِه، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ لَهُ، وَخَصَّهُ مِنْ مَعْرِفَتِه وَمَحَبَّتِه وَقُرْبِه وَإِكْرَامِه بِمَا لَمْ يُعْطِه غَيْرَهُ، وَسَخَّرَ لَهُ مَا فِي سَمَوَاتِه وَأَرْضِه وَمَا بَيْنَهُمَا، حَتَّىٰ مَلائِكَتَهُ - الَّذِّيْنَ هُمْ أَهْلُ قُرْبِه - اسْتَخْدَمَهُمْ لَهُ، وَجَعَلَهُمْ حَفَظَةً لَهُ فِي مَنَامِه وَيَقَظَتِه، وَظَعْنِه وإِقَامَتِه، وَأَنْزَلَ إِلَيْه وَعَلَيْه كُتُبَهُ، وَأَرْسَلَهُ وأَرْسَلَ إِلَيْه، وَخَاطَبَهُ وَكَلَّمَهُ مِنْهُ إِلَيْه، وَاتَّخَذَ مِنْهُمْ الخَلِيْلَ وَالكَلِيْمَ،وَالأَوْلِيَاءَ،والخَوَاصَّ، وَالأَحْبَارَ،وَجَعَلَهُمْ مَعْدِنَ أَسْرَارِه، وَمَحَلَّ حِكْمَتِه، وَمَوْضِعَ حُبِّه، وَخَلَقَ لَهُمْ الجَنَّةَ وَالنَّارَ.

فَالخَلْقُ وَالأَمْرُ، والثَّوابُ والعِقَابُ مَدَارُهُ عَلَىٰ النَّوْعِ الإِنْسَانِيِّ، فَإِنَّهُ خُلاصَةُ الخَلْقِ، وَهُوَ المَقْصُودُ بالأَمْرِ وَالنَّهْيِ، وَعَلَيْه الثَّوَابُ والعِقَابُ.

فَلِلإِنْسَانِ شَأْنٌ لَيْسَ لِسَائِرِ المَخْلُوقَاتِ، وَقَدْ خَلَقَ أَبَاهُ بِيَدِه، وَنَفَخَ فِيْه مِنْ رُوُحِه، وَأَسْجَدَ لَهُ مَلائِكَتَهُ، وَعَلَّمَهُ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، وَأَظْهَرَ فَضْلَهُ عَلَىٰ المَلائِكَةِ فَمِنْ دُوُنِهم مِنْ جَمِيْعِ المَخْلُوقَاتِ، وَطَرَدَ إِبْلِيْسَ عَنْ قُرْبِه، وَأَبْعَدَهُ عَنْ بَابِه إِذْ لَمْ يَسْجُدْ لَهُ مَعَ السَّاجِدِيْنَ، وَاتَّخَذَهُ عُدُوًّا لَهُ.

فَالْمُؤْمِنُ مِنْ نَوْعِ الإِنْسَانِ: خَيْرُ البَرِيَّةِ عَلَىٰ الإِطْلاَقِ، وَخِيرَةُ اللهِ مِنَ العَالَمِيْنَ؛ فَإِنَّ خَلْقَهُ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْهِ وَلِيَتَوَاتَر إِحْسَانُهُ إِلَيْهِ، وَلِيَخُصَّهُ مِنْ كَرَامَتِهِ وَفَضْلِهِ بِمَا لَمْ تَنَلْهُ أُمْنِيَّتِهِ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَىٰ بَالِهِ. وَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ، لِيَسْأَلَهُ مِنَ المَوَاهِبِ وَالعَطَايَا البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، العَاجِلَةِ والآجِلَةِ الَّتِي لا تُنَال إِلَّا بِمَحَبَّتِهِ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِ، وَعَهِدَ إِلَيْهِ عَهْدًا تَقَدَّمَ إِلَيْهِ فِيْهِ بِأَوَامِرِهِ وَنَوَاهِيْهِ، وَأَعْلَمَهُ فِي عَهْدِهِ مَا يُقَرِّبُهُ إِلَيْهِ، وَيَزِيْدُهُ مَحَبَّةً لَهُ وَكَرَامَةً عَلَيْهِ، وَمَا يُبْعِدُهُ مِنْهُ وَيُسْخِطُهُ عَلَيْهِ، وَيَسْقُطُ مِنْ عَيْنِهِ.

وَلِلْمَحْبُوبِ عَدُوٌّ هُوَ أَبْغَضُ خَلْقِهِ إِلَيْهِ، قَدْ جَاهَرَهُ بِالعَدَاوَةِ وَأَمَرَ عِبَادَهُ أَنْ يَكُونَ دِيْنَهُمْ وَطَاعَتَهُمْ وَعِبَادَتَهُمْ لَهُ دُونَ وَلِيِّهِمْ وَمَعْبُودِهِم الحَقِّ، وَاسْتَقْطَعَ عِبَادَهُ، وَاتَّخَذَ مِنْهُمْ حِزْبًا ظَاهَرُوْهُ، وَوَالَوْهُ عَلَىٰ رَبِّهِمْ، وَكَانُوا أَعْدَاءً، وَكَانُوا أَعْدَاءً لَهُ مَعَ هَذَا العَدُوَّ يَدْعُونَ إِلَىٰ سَخَطِهِ، وَيَطْعَنُونَ فِي رُبُوبِيَّتِهِ وَإِلَهِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَيَسُبُّونَهُ وَيُكَذِّبُونَهُ، وَيَفْتِنُونَ، أَوْلِيَاءَهُ، وَيُؤْذُونَهُمْ بِأَنْوَاعِ الأَذَىٰ، وَيُجْهِدُونَ عَلَىٰ إِعْدَامِهِم مِنَ الوُجُودِ وإِقَامَةِ الدَّوْلَةِ لَهُمْ، وَمَحْوِ كُلِّ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَتَبْدِيْلِهِ بِكُلِّ مَا يَسْخَطُهُ وَيَكْرَهُهُ؛ فَعَرَّفَهُ بِهَذَا العَدُوِّ وَطَرَائِقِهِمْ وَأَعْمَالِهُمْ وَمَآلِهُمْ، وَحَذَّرَهُ مُوالاتَهُمْ، والدُّخُولِ فِي زُمْرَتِهِمْ، وَالسُّكُونِ مَعَهُمْ.

وَأَخْبَرَهُ فِي عَهْدِهِ: أَنَّهُ أَجْوَدُ الأَجْوَدِيْنَ، وَأَكْرَمُ الأَكْرَمِيْنَ، وَأَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ، وَأَنَّهُ سَبَقَتْ رَحْمَتُهُ غَضَبَهُ، وَحِلْمُهُ عُقُوبَتَهُ، وَعَفْوُهُ مُؤَاخَذَتَهُ، وَأَنَّهُ قَدْ أَفَاضَ عَلَىٰ خَلْقِهِ النِّعْمَةَ، وَكَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ، وَأَنَّهُ يُحِبُّ الإِحْسَانَ

وَالجُودَ، وَالعَطَاءَ وَالبِرَّ، وَأَنَّ الفَضْلَ كُلَّهُ بِيَدِهِ، وَالخَيْرُ كُلُّهُ مِنْهُ، وَالجُودُ كُلَّهُ لَهُ، وَأَحَبُّ مَا إِلَيْهِ: أَنْ يَجُودَ عَلَىٰ عِبَادِهِ وَيُوسِعُهُمْ فَضْلاً، وَيُغْمُرُهُمْ إِحْسَانًا وَجُودًا، وَيُتِمُّ عَلَيْهِمْ نِعْمَتَهُ، وَيُضَاعِفُ لَدَيْهِمْ مِنَّتَهُ، وَيُتَعَرَّفُ إِلَيْهِمْ بِأَوْصَافِهِ وَأَسْمَائِهِ، وَيَتَحَبَّبُ إِلَيْهِم بِنِعَمِهِ وَآلائِهِ.

فَهُوَ الجَوَّادُ لِذَاتِهِ، وَجُودُ كُلِّ جَوَّادٍ خَلَقَهُ اللهُ وَيَخْلُقُهُ أَبَدًا أَقَلَّ مِنْ ذَرَّةٍ بِالقِيَاسِ إِلَىٰ جُودِهِ.

فَلَيْسَ الجَوّادُ عَلَىٰ الإِطْلَاقِ إِلَّا هُوَ، وَجُودُ كُلِّ جَوّادٍ فَمِنْ جُودِهِ وَمَحَبَّتِهِ لِلجُودِ والإِعْطَاءِ والإِحْسَانِ وَالبِرِّ والإِنْعَامِ والإِفْضَالِ فَوْقَ مَا يَخْطُرُ بِبَالِ الخَلْقِ، أَوْ يَدُورُ فِي أَوْهَامِهِمْ.

وَفَرَحِهِ بِعَطَائِهِ، وَجُودِهِ، وإِفْضَالِهِ؛ أَشَدُّ مِنْ فَرَحِ الآخِذِ بِمَا يُعْطَاهُ وَيَأْخُذُهُ، أَحْوَجُ مَا هُوَ إِلَيْهِ أَعْظَمُ مَا كَانَ قَدْرًا.

فَإِذَا اجْتَمَعَ شِدَّةُ الحُبِّ وَعِظَمِ قَدْرِ العَطِيَّةِ والنَّفْعِ بِهَا، فَمَا الظَّنُّ بِفَرَحِ المُعْطَىٰ ؟.

فَفَرَحُ المُعْطِي ـ سُبْحَانَهُ ـ بِعَطَائِهِ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ مِنْ فَرَحِ هَذَا بِمَا يَأْخُذُهُ، وَللهِ المَثَلُ الأَعْلَىٰ؛ إِذْ هَذَا شَأْنُ الجَوَّادِ مِنَ الخَلْقِ؛ فَإِنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ مِنَ الفَرَحِ والسُّرُورِ، وَالابْتِهَاجِ وَاللَّذَّةِ بِعَطَائِهِ وَجُودِهِ فَوْقَ مَا يَحْصُلُ لِمَنْ يُعْطِيْهِ، وَلَكِنَّ الآخِذَ غَائِبٌ بِلَذَّةِ أَخْذِهِ عَنْ لَذَّةِ المُعْطِي وَابْتِهَاجِهِ وَسُرُورِهِ، هَذَا مَعَ كَمَالِ حَاجَتِهِ إِلَىٰ مَا يُعْطِيْهِ وَفَقْرِهِ إِلَيْهِ، وَعَدَمِ وُثُوقِهِ بِاسْتِخْلَافِ مِثْلِهِ، وَخَوْفِ الحَاجَةِ إِلَيْهِ عِنْدَ ذَهَابِهِ، وَالتَّعَرُّضِ لِذُلِّ الاسْتِعَانَةِ بِنَظِيْرِهِ وَمَنْ هُوَ

دُونِه، وَنَفْسُهُ قَدْ طُبعَتْ عَلَىٰ الحِرْصِ وَالشُّحِّ.

فَمَا الظَّنُّ بمَنْ تَقدَّسَ وَتَنزَّهَ عَنْ ذَلِك كُلِّه ؟.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ سَمَاوَتِه وَأَرْضِه، وَأَوَّلَ خَلْقِه وَآخرَهُمْ، وإنْسَهُمْ، وَجِنَّهُمْ، وَرَطْبَهُمْ، وَيَابسَهُمْ قَامُوا في صَعِيْد وَاحِدٍ فَسَأَلُوهُ؛ فَأَعْطَىٰ كُلَّ وَاحِدٍ مَا سَأَلَهُ: مَا نَقصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدَهُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ.

وَهُوَ الجَوَّادُ لِذَاتِه، كَمَا أَنَّهُ الحَيّ لِذَاتِه، السَّمِيْعُ البَصِيْرُ لِذَاتِه.

فَجُودُهُ العَالي مِنْ لَوَازِم ذَاته، والعَفْوُ أَحَبُّ إلَيْه مِنَ الانْتقَام، وَالرَّحْمَةُ أَحَبُّ إلَيْهِ مِنَ العُقُوبَةِ، وَالفَضْلُ أَحبُّ إلَيْه مِنَ العَدْلِ، وَالعَطَاءُ أَحبُّ إليْهِ مِنَ المَنْع.

فَإذَا تَعَرَّضَ عَبْدُهُ وَمَحْبُوبُه الَّذي خَلَقَهُ لِنَفْسه، وَأَعَدَّ لَهُ أَنْوَاعَ كَرَامَته، وَفَضَّلَهُ عَلَىٰ غَيْرِه، وَجعَلَهُ مَحلَّ مَعْرفَته، وَأَنْزَلَ إلَيْه كِتَابَهُ، وَأَرسَلَ إلَيْهِ رَسُولَهُ، وَاعْتَنىٰ بأَمْرِه، وَلَمْ يُهْمِلْهُ، وَلَمْ يَتْرُكْهُ سُدَىٰ؛ فتَعَرَّضَ لِغَضبه، وَارْتكَبَ مَسَاخِطَهُ وَمَا يَكْرَهُهُ وَأَبَقَ مِنْهُ، وَوَالَىٰ عَدُوَّهُ وَظَاهَرَهُ عَلَيْه، وَتَحَيَّزَ إلَيْه، وَقَطَعَ طَرِيْقَ نِعَمِه وَإحْسَانِه إلَيْه الَّتي هِيَ أَحَبُّ شَيْءٍ إلَيْه، وَفَتَحَ طَرِيْقَ العُقُوبَةِ، وَالغَضَبِ وَالانْتقَام؛ فَقَدْ اسْتَدْعَىٰ مِنَ الجَوّادِ الكَرِيْم خِلافَ مَا هُوَ مَوْصُوفٌ بِه من الجُوُدِ والإحْسَانِ وَالبِرِّ، وَتَعَرَّضَ لإغْضَابه وَإسْخَاطِه وَانْتِقَامِه، وَأَنْ يَصِيْرَ غَضَبُهُ وَسَخَطُهُ في مَوْضِع رِضَاهُ، وَانْتِقَامُهُ وَعُقُوبَتُهُ في مَوْضِع كَرَمِه وَبِرِّهِ وَعَطَائِه، فَاسْتَدْعَىٰ بِمَعْصِيَتِه مِنْ أَفْعَالِه مَا سِوَاهُ أَحَبُّ إلَيْه مِنْهُ، وَخِلافَ مَا هُوَ مِنْ لَوَازِمِ ذَاتِه مِنَ الجُودِ والإحْسَانِ. فَبَيْنَمَا هُوَ

حَبِيْبُهُ المُقَرَّبُ المَخْصُوصُ بالكَرَامَةِ، إِذَا انْقَلَبَ آبِقًا شَارِدًا، رَادًا لِكَرَامَتِهِ، مَائِلاً إِلىٰ عَدُوِّهِ، مَعَ شِدَّةِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ، وَعَدَمْ اسْتِغْنَائِهِ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ.

فَبَيْنَمَا ذَلِكَ الحَبِيْبُ مَعَ العَدُوِّ فِي طَاعَتِهِ وَخِدْمَتِهِ، نَاسِيًا لِسَيِّدِهِ، مُنْهَمِكًا فِي مُوافَقَةِ عَدُوِّهِ، قَدْ اسْتَدْعَىٰ مِنْ سَيِّدِهِ وَعَطْفِهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ، وَأَنَّ مَصِيرَهُ إِلَيْهِ، وَعَرْضِهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُ إِنْ لَمْ يُقْدِمَ عَلَيْهِ بِنَفْسِهِ قُدِمَ بِهِ عَلَيْهِ عَلَىٰ أَسْوَأ الأَحْوَالِ، فَفَرَّ إِلىٰ سَيِّدِهِ مِنْ بَلَدِ عَدُوِّهِ؛ وَجَدَ فِي الهَرَبِ إِلَيْهِ حَتَّىٰ وَصَلَ إِلىٰ بَابِهِ، فَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَىٰ عَتَبَةِ بَابِهِ، وَتَوَسَّدَ ثَرَىٰ أَعْتَابِهِ، مُتَذَلِّلاً، مُتَضَرِّعًا، خَاشِعًا، بَاكِيًا، آسِفًا، يَتَمَلَّقُ سَيِّدَهُ وَيَسْتَرْحِمُهُ، وَيَسْتَعْطِفُهُ وَيَعْتَذِرُ إِلَيْهِ، قَدْ أَلْقَىٰ بِيَدِهِ إِلَيْهِ، وَاسْتَسْلَمَ لَهُ وَأَعْطَاهُ قِيَادَهُ، وَأَلْقَىٰ قِيَادَهُ، وَأَلْقَىٰ إِلَيْهِ زِمَامَهُ؛ فَعَلِمَ سَيِّدُهُ مَا فِي قَلْبِهِ، فَعَادَ مَكَانَ الغَضَبِ عَلَيْهِ رِضًا عَنْهُ، وَمَكَانَ الشِّدَّةِ عَلَيْهِ رَحْمَةٌ بِهِ، وَأَبْدَلَهُ بِالعُقُوبَةِ عَفْوًا، وَبِالمَنْعِ عَطَاءً، وَبِالمُؤَاخَذَةِ حِلْمًا؛ فَاسْتَدْعَىٰ بِالتَّوْبَةِ وَالرُّجُوعِ مِنْ سَيِّدِهِ مَا هُوَ أَهْلُهُ، وَمَا هُوَ مُوجِبُ أَسْمَائِهِ الحُسْنَىٰ، وَصِفَاتِهِ العُلْيَا.

فَكَيْفَ يَكُونَ فَرَحُ سَيِّدُهُ بِهِ ؟!!.

وَقَدْ عَادَ عَلَيْهِ حَبِيْبُهُ وَوَلِيُّهُ طَوْعًا وَاخْتِيَارًا، وَرَاجَعَ مَا يُحِبُّهُ سَيِّدُهُ مِنْهُ بِرِضَاهُ، وَفَتَحَ طَرِيْقَ البِرِّ وَالإِحْسَانِ وَالجُوْدِ، الَّتِي هِيَ أَحَبُّ إِلىٰ سَيِّدِهِ مِنْ طَرِيْقِ الغَضَبِ وَالانْتِقَضامِ وَالعُقُوبَةِ ؟.

وَهَذَا مَوْضِعُ الحِكَايَةِ المَشْهُورَةِ عَنْ بَعْضِ العَارِفِيْنَ: أَنَّهُ حَصَلَ لَهُ شُرُودٌ وَإِبَاقٌ مِنْ سَيِّدِهِ، فَرَأَىٰ فِي بَعْضِ السِّكَكِ بَابًا قَدْ فُتِحَ، وَخَرَجَ مِنْهُ صَبِيٌّ

يَسْتَغِيْثُ وَيَبْكِي وَأُمَّهُ خَلْفَهُ تَطْرُدُهُ، حَتَّىٰ خَرَج، فَأَغْلَقَت البَابَ فِي وَجْهِهِ وَدَخَلَتْ، فَذَهَبَ الصَّبِيُّ غَيْرَ بَعِيْدٍ، ثُمَّ وَقَفَ مُفَكِّرًا، فَلَمْ يَجِدْ مَأْوَىٰ غَيْرَ البَيْتِ الَّذِي أُخْرِجَ مِنْهُ، وَلا مَنْ يُؤْوِيْهِ غَيْرَ وَالِدَتِهِ، فَرَجَعَ مَكْسُوْرَ القَلْبِ حَزِيْنًا، فَوَجَدَ البَابَ مُرْتَجًا، فَتَوَسَّدَهُ وَوَضَعَ خَدَّهُ عَلَىٰ عَتَبَةِ البَابِ وَنَامَ.

فَخَرَجَتْ أُمُّهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ عَلَىٰ تِلْكَ الحَالِ لَمْ تَمْلِكْ أَنْ رَمَتْ نَفْسَهَا عَلَيْهِ، وَالتَزَمَتْهُ تُقَبِّلُهُ وَتَبْكِي، وَتَقُولُ: يَا وَلَدِي، أَيْنَ ذَهَبْتَ عَنِّي ؟، وَمَنْ يُؤْوِيكَ سُوَايَ ؟.

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لا تُخَالِفَنِي، وَلا تَحْمِلْنِي بِمَعْصِيَتِكَ لِي عَلَىٰ خِلافِ مَا جُبِلْتُ عَلَيْهِ مِنَ الرَّحْمَةِ بِكَ، وَالشَّفَقَةِ عَلَيْكَ، وَإِرَادَتِي الخَيْرَ لَكَ ؟، ثُمَّ أَخَذَتْهُ وَدَخَلَتْ.

فَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنَ الوَالِدَةِ بِوَلَدِهَا**» (١)، وَأَيْنَ تَقَعُ رَحْمَةُ الوَالِدَةِ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ؟.

فَإِذَا أَغْضَبَهُ العَبْدُ بِمَعْصِيَتِهِ فَقَدْ اسْتَدْعَىٰ مِنْهُ صَرْفُ تِلْكَ الرَّحْمَةِ عَنْهُ، فَإِذَا تَابَ إِلَيْهِ فَقَدْ اسْتَدْعَىٰ مِنْهُ مَا هُوَ أَهْلُهُ وَأَوْلَىٰ بِهِ.

فَهَذِهِ نَبْذَةٌ يَسِيْرَةٌ تُطْلِعُكَ عَلَىٰ سِرِّ فَرَحِ اللهِ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الَّذِي هُوَ أَعْظَمُ مِنْ فَرَحِ هَذَا الوَاجِدِ لِرَاحِلَتِهِ فِي الأَرْضِ المُهْلِكَةِ، بَعْدَ اليَأْسِ مِنْهَا.

وَوَرَاءَ هَذَا مَا تَجْفُو عَنْهُ العِبَارَةُ، وَتَدُقُّ عَنْ إِدْرَاكِهِ الأَذْهَانُ» (٢).

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٥٩٩٩) وَمُسْلِمٌ (٢٧٥٤).

(٢) «مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ» (١/ ٢١٧ - ٢٢١).

الفَصْلُ الثَّالِثُ

أَنْوَاعُ التَّوْبَةِ (١)

١ - التَّوْبَةُ الوَاجِبَةُ:

وَتَكُونُ مِنْ فِعْلِ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَرْكِ الوَاجِبَاتِ.

٢ - التَّوْبَةُ الْمُسْتَحَبَّةُ:

وَتَكُونُ مِنْ فِعْلِ الْمَكْرُوهَاتِ وَتَرْكِ الْمُسْتَحَبَّاتِ (٢).

٣ - التَّوْبَةُ الصَّحِيحَةُ:

وَهِيَ أَنَّهُ إِذَا اقْتَرَفَ الْعَبْدُ ذَنْبًا تَابَ عَنْهُ بِصِدْقٍ فِي الحَالِ.

٤ - التَّوْبَةُ النَّصُوحُ:

وَهِيَ تَوْثِيْقُ الْعَزْمِ عَلَىٰ أَلاَّ يَعُودُ بِمِثْلِهِ، وَقِيلَ هِيَ أَلاَّ يُبْقِي (التَّائِبُ) عَلَىٰ عَمَلِهِ أَثَرًا مِنَ الْمَعْصِيَةِ، سِرًّا وَجَهْرًا. وَهَذِهِ التَّوْبَةُ هِيَ الَّتِي يُوْرِثُ صَاحِبَهَا

---

(١) انْظُرْ: التَّعْرِيْفَات لِلْجرجَانِي (٧٤)، وَكَشْفِ اصْطِلاحَات الفُنُون للتَّهَانوي (١/ ٢٣٣) «التَّوْبَةُ وَظِيْفَةُ العُمْر» لِمُحَمَّد ابن إبْرَاهِيم الحَمْد (ص٨١).

(٢) قَالَ شَيْخُ الإِسْلام ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ كَمَا فِي جَامِعُ الرَّسَائِل (١/ ٢٢٧):« التَّوْبَةُ الوَاجِبَةُ تَكُونُ مِنْ فِعْلِ الْمُحَرَّمَاتِ وَتَرْكِ الوَاجِبَاتِ ، والمُسْتَحَبَّةُ تَكُوْنُ مِنْ فِعْلِ المَكْرُوهَاتِ وَتَرْكِ الْمُسْتَحَبَّاتِ، فَمَنْ اقْتَصَرَ عَلَىٰ التَّوْبَةُ الأُوْلَىٰ كَانَ مِنَ الأَبْرَارِ الْمُقْتَصِدِيْنَ، وَمِنْ تَابَ التَّوْبَتَيْنِ كَانَ مِنَ السَّابِقِيْنِ الْمُقَرَّبِيْنَ، وَمَنْ لَمْ يَأْتِ بالأُوْلَىٰ كَانَ مِنَ الظَّالِمِيْنَ : إِمَّا الكَافِرِيْنَ ، وَإِمَّا الفَاسِقِيْنَ » .

الْفَلاحَ عَاجِلاً وَآجِلاً.

٥ - التَّوْبَةُ الخَاصّة:

وَهِيَ أَنْ يَتُوتُ مِنْ بَعْضَ الذُّنُوب مَعَ إِصْرارِه عَلَىٰ بَعْضِهَا الآخَر، وَتَوْبَتُهُ صَحيْحَةٌ مِنْ ذَلكَ الذَّنْب مَا لَمْ يُصِرُّ عَلَىٰ ذَنْب آخَر مِنْ نَوْعِه، كَمَنْ تَابَ مِنَ الزِّنَا بِامْرَأَةٍ وَهُوَ مُصِّرٌ عَلَىٰ الزِّنَا بِأُخْرَىٰ؛ فَإِنَّ تَوْبَتَهُ لا تَصِحُ.

٦ - تَوْبَةُ العَاجِزِ:

العَاجِزُ هُوَ مَنْ يَتَمَنَّىٰ أَنَّهُ لَوْ قَارَفَ المَعْصِيَةَ لَوْلاَ وُجُودِ حَائِلٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا؛ كَامْرَأَةٍ تَتَمَنَّىٰ الاتِّصَالُ بِمَنْ تُحِبُّ لَكِنْ تَخْشَىٰ سَطْوَة زَوْجِهَا أَوْ وَلِّي أَمْرِهَا، أَوْ رَجُلٍ يُرِيْدُ أَنْ يَقْتُل آخَرَ لَكِنَّهُ يَخْشَىٰ سَطْوَةَ قَبِيْلَته، أَوْ رَجُلٍ يُرِيْدُ سَرِقَة شَيْءٍ لَكِنَّهُ لا يَسْتَطِيْعُ حَمْلَهُ لِثِقَلِه فَتَرَكَهُ لِذَلِكَ، وَلَوْ أَنَّهُ تَرَكَ ذَلكَ لله لَنَجَا مِنَ المَعْصِيَةِ كِفَافًا لاَ لَهُ وَلاَ عَلَيْهِ، وَيَكْفِي العَاجِزَ نَدَمُهُ عَلَىٰ ذَنْبِهِ ثُمَّ لَوْمُهُ لِنَفْسِهِ.

٧ - التَّوْبَةُ مِنْ قَرِيْبٍ:

هِيَ التَّوْبَةُ فِي الحَيَاةِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ العَبْدُ فَتُقْبَلُ مِنْهُ. قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ ﴾ [النِّسَاءُ:١٧].

قَالَ ابْنُ رَجَب ـ رَحِمَهُ اللّه ـ:

(وَأَمَّا التَّوْبَةُ مِنْ قَرِيْب فَالجُمْهُورُ عَلَىٰ أَنَّ المُرَادَ بِهَا التَّوْبَةُ قَبلَ المَوْتِ؛ فَالعُمْرُ كُلُّهُ قَرِيْبٌ، وَمَنْ تَابَ قَبْلَ المَوْتِ فَقَدْ تَابَ مِنْ قَرِيْبٍ، وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَقَدْ بَعُدَ كُلَّ البُعْدِ، كَمَا قِيْلَ:

فَهُمْ جِيَرْةُ الأَحْيَاءِ أَمَّا قَرَارُهُمْ

فَدَانٍ وَأَمَّا المُلْتَقَى فَبَعِيْدُ

فَالحَيُّ قَرِيْبٌ، وَالمَيِّتُ بَعِيْدٌ مِنْ الدُّنْيَا عَلَىٰ قُرْبِهِ مِنْهَا؛ فَإِنَّ جِسْمَهُ فِي الأَرْضِ يُبْلَىٰ، وَرُوْحَهُ عِنْدَ اللهِ تُنَعَّمُ أَوْ تُعَذَّبُ، وَلِقَاءُهُ يُرْجَىٰ فِي الدُّنْيَا»(١).

٨ - التَّوْبَةُ عِنْدَ المَوْتِ:

إِذَا عَايَنَ العَبْدُ أُمُورَ الآخِرَةِ، وَانْكَشَفَ الغِطَاءُ، وَشَاهَدَ المَلائِكَةَ، فَصَارَ الغَيْبُ عِنْدَهُ شَهَادَةً، فَإِنَّ الإِيْمَانَ وَالتَّوْبَةَ لا تَنْفَعُهُ فِي تِلْكَ الحَالِ.

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النِّسَاءُ:١٨].

فَسَوَّىٰ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ بَيْنَ مَنْ تَابَ عِنْدَ المَوْتِ، وَمَنْ مَاتَ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ، وَالمُرَادُ بِالتَّوْبَةِ عِنْدَ المَوْتِ التَّوْبَةِ عِنْدَ انْكِشَافِ الغِطَاءِ، وَمُعَايَنَةِ المُحْتَضِرِ

(١) «لَطَائِفُ المَعَارِف» (ص٣٨٠).

أُمُوْرَ الآخِرَةِ وَمُشَاهَدَةِ المَلائِكَةِ ـ كَمَا مَرَّ ـ [١].

٩ - التَّوْبَةُ الفَاسِدَةُ:

هِيَ التَّوْبَةُ بِاللِّسَانِ مَعَ بَقَاءِ لَذَّةِ الْـمَعْصِيَةِ فِي الخَاطِرِ، وَهَذَا مُخَالِفٌ لِشُرُوطِ التَّوْبَةِ، إِذْ مِنْ شُرُوطِهَا النَّدَمُ الَّذِي يُحْرِقُ لَذَّةَ المَعْصِيَةِ مِنَ القَلْبِ لِيَحِلَّ مَحَلَّهَا لَذَّةُ التَّوْبَةِ الَّتِي هِيَ أَعْظَمُ لَذَّةٍ مِنْ المَعْصِيَةِ الَّتِي قَارَفَهَا.

١٠ - التَّوْبَةُ المُوَقَّتَةُ:

وَهِيَ الَّتِي تَكُونَ فِي مَوْسِمِ الخَيْرِ كَرَمَضَانَ، أَوْ يَوْمِ الجُمُعَةِ، ثُمَّ يَعُودُ التَّائِبُ إِلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الذَّنْبِ.

١١ - تَوْبَةُ الْـمُضْطَّرِ:

الَّذِي يَنْزِلُ بِهِ بَلاءٌ مِنْ مَرَضٍ أَوْ مُصِيْبَةٍ؛ كَمَوْتِ قَرِيْبٍ أَوْ عَزِيْزٍ أَوْ رُكُوبِ البَحْرِ، فَإِذَا أَشْرَفَ عَلَىٰ الغَرَقِ تَابَ إِلَىٰ اللهِ، فَإِذَا نَجَّاهُ اللهُ وَرَأَىٰ نَفْسَهُ فِي البَرِّ عَادَ إِلَىٰ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ المَعَاصِي،وَهَذَا كَثِيرٌ.

---

(١) «المَصْدَرُ السَّابِقُ» ص (٣٨٢ - ٣٨٣).

الفَصْلُ الرَّابِعُ

فِيمَا يُتَابُ مِنْهُ

التَّوْبَةُ تكُونُ مِنْ جَمِيْعِ الذُّنُوبِ، وَلاَ بُدَّ لِلتَّائِبِ مِنْ مَعْرِفَةِ الذُّنُوبِ حَتَّىٰ لا يَقَعْ فِيْهَا، كَمَا قِيْلَ: (مَعْرِفَةُ الدَّاءِ سَبِيْلٌ لِمَعْرِفَةِ الدَّوَاءِ) .

وَقِيْلَ:

عَرَفْتُ الشَّـرَّ لاَ لِلشَّرِّ وَلَكِنَّ لِتَوَقِيْهِ

وَمَنْ لاَ يَعْرِفُ الشَّـرَّ مِنَ الخَيْرِ يَقَعُ فِيْهِ

فَإِذَا كَانَتْ التَّوْبَةُ وَاجِبَةٌ، فَمَعْرِفضةُ مَا يُتَابَ مِنْهُ وَاجِبٌ، وَمَا لا يَتِمُّ الوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ، وَالَّذِي يُتَابُ مِنْهُ يَنْقَسِمُ إِلىٰ قِسْمَيْنِ:

١ - التَّوْبَةُ مِنْ تَرْكِ الْمَأْمُورَاتِ:

كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ التَّوْبَةِ إِلاَّ عَمَّا يَفْعَلْهُ العَبْدُ مِنَ ارْتِكَابِ الْـمَحْظُورِ، والتَّوْبَةُ مِنْ تَرْكِ الْمَأْمُورِ أَوْلَىَ مِنَ التَّوْبَةِ مِنْ فَعْلِ الْـمَحْظُورِ.

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَةَ ـ رَحِمَهُ اللّٰهُ ـ:

(وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لاَ يَسْتَحْضِر عِنْدَ التَّوْبَةِ إِلَّا بَعْضَ المعاصي الْـمُتَّصِفَاتِ

بالْفَاحِشَة أو مُقَدَّمَاتِهَا، أو بَعْضِ الظُّلْم باللِّسَانِ أَوْ اليَدِ، وَقَدْ يَكُونُ ما تَرَكَهُ مِنْ المَأْمُوْرِ الَّذي يَجِبُ عَلَيْه في بَاطِنِه وَظَاهِرِه مِنْ شُعَبِ الإِيْمَانِ وحَقَائِقه أعْظَمَ ضَرراً عَلَيْه، مِمَّا فَعَلَهُ مِنْ بَعْضِ الْفَوَاحِش؛ فإِنَّ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ مِنْ حَقَائِقِ الإيمَانِ الَّتي بِهَا يَصِيرُ الْعَبْدُ مِنَ الْـمُؤْمِنيْنَ حَقّاً أَعْظَمُ نَفْعاً مِنْ نَفْعِ تَرْكِ بَعْضِ الذُّنُوبِ الظَاهِرَةِ، كَحُبِّ اللهِ وَرَسُولِه، فَإِنَّ هَذَا أَعْظَمُ الْـحَسَناتِ الْفِعْلِيَّةِ» (١).

٢ - التَّوْبَةُ مِنْ فِعْلِ الْمَحْظُورَاتِ:

هِيَ اثْنَا عَشْرَ جِنْسًا، ذَكَرَهَا ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ في (المَدَارِجَ) (٢).

ثُمَّ قَالَ: (وَلا يَسْتَحِقُ الْعَبْدِ اسْمَ التَّائِبِ، حَتَّىٰ يَتَخَلَّصَ مِنْهَا).

وَهَذِهِ الأَجْنَاسِ مَذْكُوراتٍ فِي كِتَابِ اللهِ ـ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

وَهِيَ: الْكُفْرُ، وَالشِّرْكِ، وَالنِّفَاقُ، وَالفُسُوقُ، وَالعِصْيَانُ، وَالإِثْم، والعُدْوَانُ، وَالفَحْشَاءُ، وَالمُنْكَرُ، وَالبَغْي، وَالقَوْلُ عَلَىٰ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمِ، وَاتِّبَاعِ غَيْرَ سَبِيْلِ المُؤْمِنِيْنَ.

فَهَذِهِ الاثْنَا عَشْرَ عَلَيْهَا مَدَارُ كُلِّ مَا حَرَّمَ اللهِ، وَإِلَيْهَا انْتِهَاءِ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِمُ إِلَّا أَتْبَاعِ الرُّسُلِ ـ صَلَوَتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِمْ ـ.

---

(١) مجْمُوع الفَتَاوىٰ (١٠/ ٢٣).

(٢) «مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ» (١/ ٣٤٤).

وَقَدْ يَكُونُ فِي الرَّجُلِ أَكْثَرُهَا وَأَقَلَّهَا، أَوْ وَاحِدَةٍ مِنْهَا، وَقَدْ يَعْلَمُ ذَلِكَ، وَقَدْ لا يَعْلَمُهُ.

فَالتَّوْبَةُ النَّصُوحُ: هِيَ بِالتَّخَلُّصِ مِنْهَا، وَالتَّحَصُّنُ مِنْ مُوَاقِعَتِهَا، وَإِنَّمَا يُمْكِنُ التَّخَلُّصِ مِنْهَا لِمَنْ عَرَفَهَا.

٣ - التَّوْبَةُ مِمَّا لا يَعْلَمُهُ العَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ:

قَدْ يَقَعُ المَرْءُ فِي ذُنُوبٍ هُوَ يَعْلَمُهَا فَيَتُوبُ مِنْهَا وَلا يَخْطُرُ بِبَالِهِ أَنَّ لَهُ ذُنُوبًا غَيْرَهَا وَالعُلاقَلُ يَتُوبُ إِلَىٰ اللهِ تَوْبَةً عَامَّةً مِمَّا يَعْلَمُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَمِمَّا لا يَعْلَمُ، وَرُبَّمَا كَانَ مَا لا يَعْلَمُهُ العَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ أَكْثَرَ مِمَّا يَعْلَمُهُ، وَلِهَذَا أَرْشَدَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إِلَىٰ التَّوْبَةِ مِمَّا لا يَعْلَمُهُ المَرْءُ؛ لأَنَّ مَا لا يَعْلَمُهُ قَدْ يَكُونُ أَخطَرُ وَأَشَدُّ مِمَّا يَعْلَمُهُ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لإِمْكَانِ التَّوْبَةِ مِمَّا يَعْلَمُهُ دُونَ مِمَّا لا يَعْلَمُهُ.

فَعَنْ أَبِي بَكْرٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : **«الشِّركُ فِيكُمْ أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ، وَسَأَدُلُّكَ عَلَىٰ شيءٍ إِذَا فَعَلْتُهُ أَذْهَبَ عَنْكَ صِغَارَ الشِّرْكِ وكِبَارَهُ، تَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أُشرِكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ، واسْتَغْفِرُكَ لِمَا لاَ أَعْلَمُ»** (١).

(١) « صَحِيحٌ » رَوَاهُ البُخَارِيُّ فِي الأَدَبِ المُفْرَدِ (٧٣٧) ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي « صَحِيحِ الجَامِعِ » (٣٧٣١) .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

(فَهَذَا طَلَبُ الاسْتِغْفَارِ مِمَّا يَعْلَمُهُ الله أَنَّهُ ذَنْبٌ، وَمِمَّا لاَ يَعْلَمُهُ العَبْدُ).

وَجَاءَ عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**أَنَّهُ كَانَ يَدْعُو فِي صَلاتِه: اللهُمَّ اغْفِر لِي ما قَدَّمتُ وما أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرتُ،وَمَا أَعْلَنتُ، وَمَا أَنْتَ أَعَلَمُ بِهِ مِنِّي؛ إِنَّكَ أَنْتَ الْـمُقْدِمُ وَالْـمُؤخِرُ لاَ إِلَه إلا أَنْتَ**»(١).

وفي الحديث الآخر: «**اللهُمَّ اغْفِرِ لِي ذَنْبِي كُلَّهُ، دِقَّهُ وَجُلَّهُ، وَأَوْلَهُ وَآخِرَهُ، وَعَلاَنِيَتَهُ وسِرَّهُ**» (٢).

فَهَذَا التَعْمِيم، وَهَذَا الشُمُولِ، لِتَأْتِي التَّوْبِةِ عَلَىٰ مَا عَلِمَهُ الْعَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ وَمَا لَمْ يَعْلَمَهُ (٣).

٤ - التَّوْبَةُ مِنْ قَتْلِ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ:

كُلَّ مَظْلَمَةٍ تَصِحُّ التَّوْبَةُ مِنْهَا حَتَّىٰ قَتْلُ العَمْدِ عَلَىٰ الصَحِيحِ؛ فَإِنَّ لِلعُلَمَاءِ فِي قَبُولِ تَّوْبَتَهُ قولانِ هُمَا:

(أ) ذَهَبَ الْجُمْهُورِ إِلىٰ أَنَّ تَوْبَةَ القَاتِلِ مَقْبُولَةٌ، وَاسْتَدَلُّوا بِأَدِلَّةٍ مِنْهَا:

١ - قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ قُلۡ يَـٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (١١٢٠) وَمُسْلِمٌ (٦٧٩).
(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ (٤٨٣).
(٣) « مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ » (١/ ٢٨٣).

ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزُّمَر:٥٣] .

٢ – قَالَ اللهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ–: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الشُّورَىٰ: ٢٥].

٣ – قَالَ اللهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ–: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ [النِّسَاءُ:٤٨].

٤ – عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ ـرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُـ أَنَّ نَبِيَّ اللهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– قَالَ : « كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ فَأَتَاهُ ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟ ، فَقَالَ : لَا ، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ ، فَقَالَ : إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ ؟، فَقَالَ : نَعَمْ وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ ، فَاعْبُدْ اللهَ مَعَهُمْ وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ .

فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ ، فَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ : جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ ، وَقَالَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ : إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ ، فَقَالَ : قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ ، فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى

فَهُوَ لَهُ ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ ، فَقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ» (١).

٥ – وعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– فِي مَجْلِسٍ فَقَالَ : « **تُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لَا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا ، وَلَا تَزْنُوا ، وَلَا تَسْرِقُوا ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ، فَعُوقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ أَصَابَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ ، إِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ ، وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ** » (٢).

والشَاهِدُ فِي قَوْلَهُ : « **وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً فَعُوْقِبَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، أَي إِذَا عُوقِبَ عَلَىٰ ذَنْبِهِ، وَالعِقَابُ كَفَّارَةٌ**».

(ب) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: لا تَوْبَةَ لِقَاتِلِ الْمُؤمِنُ عَمْدًا:

وَهَذَا مَذْهَبُ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ الْـمَعْرُوفِ عَنْهُ ، وَإِحْدَىٰ الرِوَايَتَيْنِ عَنْ أَحْمَد، وَنُقِلَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ مِنْهُمْ عَبْدُ اللهِ بْنِ عُمَرَ وَأَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْسَّلَفِ»(٣).

وَالرَّاجِحُ رَأَيُ الجُمْهُورِ،وَهُوَ أَنَّ القَاتِلَ إِذَا تَابَ وَسَلَّمَ نَفْسَهُ لِيُقْتَصَ

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٣٤٧٠) وَمُسْلِمٌ (٢٧٦٦) وَاللَّفْظُ لَهُ .
(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٨٠١).
(٢) انْظُرْ: (تَفْسِيْرُ ابْنِ كَثِيْرٍ) (١/ ٥٣٦) .

مِنْهُ، فَإِنَّ لَهُ تَوْبَةً مَقْبُولَةً إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ [(١)].

(١) قَالَ الإِمَامُ الأَلْبَانِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ حَدِيْثَ سَعِيْدِ ابْنُ جُبَيْرٍ فِي البُخَارِيُّ (٤٧٦٤) كَمَا فِي الصَّحِيْحَة المُجَلَّدُ السَادِسُ القِسْمُ الأَوْلُ (٧١٠ – ٧١٢). والنَّسَائِيُّ (٤٠٠١) وَاللَّفْظُ ، قَالَ : قُلْتُ لابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ: هَلْ لِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعْمِدًا مِنْ تَوْبَةٍ ؟ ، قَالَ : لا ، وَقرأْتُ عَلَيْهِ الآيَةُ الَّتِي فِي الفُرْقَانِ... قَالَ : « هَذِهِ مَكِّيَّة نَسَخَتْهَا آيَةٌ مَدَنِيَّةٌ ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ** ﴾ ـ فِي رِوَايَةُ البُخَارِيُّ المُتَقَدِّمَة عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: لا تَوْبَةَ لِقَاتِلٍ عَمْدًا، وَهَذَا مَشْهُورٌ عَنْهُ ، لَهُ طُرُقٌ كَثِيْرَة .

كَمَا قَالَ ابْنُ كَثِيْرٍ وابْنُ حَجرٍ، وَالجُمْهُورُ عَلَىٰ خِلافِهِ ، وَهُوَ الصَّوَابُ الَّذِي لا رَيْبَ فِيهِ ، وَآيَةُ (الفُرّقَان) صَرِيْحَةٌ فِي ذَلِكَ ، وَلا تُخَالِفَهَا آيَةُ (النِّسَاءِ) ؛ لأَنَّ هَذِهِ فِي عُقُوبَةِ القَاتِلِ وَلَيْسَتُ فِي تَوْبَتِهِ، وَهَذَا ظَاهِرٌ جِدًا ، وَكَأَنَّهُ لِذَلِكَ رَجعَ إِلَيْهِ ، كَمَا وَقَفْتُ عَلَيْهِ فِي بَعْضِ الرِّوَايَات عَنْهُ ، وَرَأَيْتُ أَنَّهُ لابُدَّ مِنْ ذِكْرِهَا لِعَزِتَهَا ، وإغْفَال الحَافِظِيْنَ لَهَا .

الأَوْلُ: وَعَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ : أَنَّهُ أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ : إِنِّي خَطَبْتُ امْرأَةً، فَأَبَتْ أَنْ تَنْكَحَنِى ، وَخَطبَهَا غَيْرِي ، فَأَحَبَّتْ أَنْ تَنْكحَهُ ، فَغِرْتُ عَلَيْهَا ؛ فَقَتَلْتُهَا ، فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ » .

قَالَ : أُمُّكَ حَيَّةٌ ؟، قَالَ : لا . قَالَ :تُبْ إِلىٰ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ ، وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ مَا اسْتَطَعْتَ فَذَهَبْتُ، فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ : لِمَ سَأَلْتَهُ عَنْ حَيَاةِ أُمِّهِ » .

فَقَالَ : « إِنِّي لا أَعْلَمُ عَمَلاً أَقْرَبُ إِلىٰ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ مِنْ بِرِّ الوَالِدَةِ » . أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ فِي « الأَدَبِ المُفْرَد» (٤) بِسَنَدٍ صَحِيح عَلَىٰ شَرْطِ «الصَّحِيْحَيْنِ » .

الثَّانِيَة: مَا رَوَاهُ سَعِيدٌ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ فِي قَوْلِهِ :﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ** ﴾ قَالَ : لَيسَ لِقَاتِلٍ تَوْبَةً ، إِلَّا أَنْ يَسْتَغْفِرَ اللهَ.أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيْرٍ (٥/ ١٣٨)، بِسَنَدٍ جَيْدٍ ، وَلَعَلَّهُ يُعْنِي أَنَّه لاَ يُغْفَرَ لَهُ ؛ عَلَىٰ قَوْلِ الأَوْلِ ، ثُمَّ اسْتَدْركَ عَلَىٰ نَفْسِهِ فَقَالَ :(إِلَّا أَنْ يَسْتَغْفِرَ الله)، واللهُ أَعْلَمُ . ا . هـ .

الفَصْلُ الخَامِسُ

شُرُوطُ التَّوْبَةِ

لِلتَّوْبَةِ شُرُوطٌ لابُدَّ مِنَ الإتْيَانِ بِهَا حَالَ التَّوْبَةِ، وَبُدُونِهَا تَصْبَحُ التَّوْبَةُ لا مَعْنَىٰ لَهَا، وَهِيَ مَا يَأْتِي:

١ - الإِخْلاصُ:

الإخْلاصُ شَرْطٌ فِي قُبُولِ الأَعْمَالِ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور:٣١].

أَيْ لابْتِغَاءِ وَجْهِ اللهِ، لاَ لِهَدَفٍ ذَاتِي، أَوْ مَآرِبَ خَاصَّة، قَالَ ابْنُ سَعْدِي ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، أَيْ: لا لِمَقْصَدٍ غَيْرِ وَجْهِهِ مِنْ سَلامَةٍ مِنْ آفَاتِ الدُّنْيَا، أَوْ رِيَاءٍ وَسُمْعَة، أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ مِنَ المَقَاصِدِ الفَاسِدَةِ»(١).

٢ - الإقْلاعُ عَنِ المَعْصِيَةِ:

لابُدَّ أَنْ يُقْلِعُ عَنْ المَعْصِيَةُ فَوْرًا، فَإِنْ كَانَتْ بِفِعْلِ مُحَرَّمٍ تَرَكَهَا فِي الحَالِ، وَلا يَكُونَ تَارِكًا لِلمَعْصِيَةِ حَتَّىٰ يَتْرُكَ لَذَّتِهَا المَوْجُودَةُ فِي الخَاطِرِ، وَإِنْ كَانَتْ بِتَرْكِ وَاجِبٍ فَعَلَهُ فِي الحَالِ ـ إِنْ كَانَ مِمَّا يُمْكِنُ قَضَاؤُهُ.

(١) تَفْسِيرُ ابْنُ سَعْدِي (٦٦٠).

٣ - النَّدَمُ عَلَىٰ فِعْلِهَا:

لابُدَّ أَنْ يَنْدَمَ عَلَىٰ فِعْلِ الْـمَعْصِيَةِ نَدَامًا يُوجِبُ الانْكِسَارِ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ، وَالإِنَابَةُ إِلَيْهِ؛ لأَنَّ الشُّعُورَ بِالنَّدَمِ يَدُلُ عَلَىٰ صِدْقِ التَّائِبُ فِي تَوْبَتُهُ، لِحَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ عَنْ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: «**النَّدَمُ تَوْبَةٌ**»[١].

٤ - العَزْمُ عَلَىٰ عَدَمِ العَوْدِ إِلَيْهَا:

فَيَعْزِمُ أَنْ لاَ يَعُودَ إِلَىٰ الذَّنْبِ طِيْلَةَ حَيَاتِهِ، فَإِنْ كَانَتْ نِيَّةُ التَّائِبِ أَنَّهُ سَوْفَ يَعُودُ عِنْدَمَا تَسْمَحُ لَهُ الفُرْصَةُ فَإِنَّ التَّوْبَةَ لا تَصِحُّ، فَإِذَا كَانَ يَرْتَكِبُ المَعَاصِي وَحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ المَعْصِيَةِ حَائِلٌ فَتَابَ مِنَ المَعْصِيَةَ عَلَىٰ نِيَّةِ أَنَّهُ مَتَىٰ ارْتَفَعَ الحَائِلُ عَادَ إِلَيْهَا، وَهَذِهِ تَوْبَةٌ بَاطِلَةٌ لأَنَّهَا تَوْبَةُ عَاجِزٍ عَنْ المَعْصِيَةِ.

وَالعَزْمُ عَلَىٰ عَدَمِ الذَّنْبِ لا يَعْنِي عَدَمَ الوُقُوعِ فِي الذَّنْبِ، بِحَيْثُ إِذَا عَادَ إِلَىٰ الذَّنْبِ بَطَلَتْ تَوْبَتُهُ، بَلْ المَطْلُوبُ مِنَ العَبْدِ أَنْ يَعْزِمَ عَزْمًا أَكِيدًا عَلَىٰ عَدَمِ العَوْدِ، فَإِنْ فَعَلَ صَحَّتْ تَوْبَتُهُ، فَمَنْ أَزَلَّهُ الشَّيْطَانُ بَعْدَ ذَلِكَ فَوَقَعَ فِي الذَّنْبِ مَرَّةً أُخْرَىٰ؛ فَإِنَّهُ يَحْتَاجُ إِلَىٰ تَوْبَةٍ أُخْرَىٰ .

فَفِي «الصَّحِيْحَيْنِ» مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ: **قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فِيمَا يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: قَالَ: «أَذْنَبَ**

---

(١) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهْ (٤٢٥٠) لِكِنَّهُ مُنْقَطِعٌ وَلَهُ طَرِيْقٌ أَخْرَىٰ صَحِيْحَةُ ، صَحَّحَهَا الأَلْبَانِي فِي (الرَّوضُ النَّضِيْرُ) رقم (٦٤٢) .

عَبْدٌ ذَنْبًا، فَقَالَ: اللهُمَّ اغْفر لِي ذَنْبِي ! فَقَالَ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِر لِي ذَنْبِي ، فَقَالَ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ: عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا فَعلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ، فَقَالَ: أَيْ رَبِّ اغْفِر لِي ذَنْبِي، فَقَالَ ـ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ـ: أَذْنَبَ عَبْدِي، فَعلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ، اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[1].

٥ - أَنْ تَكُونَ فِي زَمَنِ قَبُولِهَا:

وَزَمَنْ قَبُولِ التَّوْبَةِ قَبْلَ حُضُورِ الأَجَلِ، وَطُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، لِقَوْلِ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ [النِّسَاءُ: ١٨].

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- عَنِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»[2]. [3].

وَهَذَا وَقْتٌ خَاصٌ، وَلابُدَّ أَنْ يَأْتِي وَقْتٌ عَامٌ وَهُوَ وَقْتُ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَفِي هَذَا الوَقْتِ لاَ تَنْفَعُ تَوْبَةَ تَائِبٍ.

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٧٥٠٧) وَمُسْلِمٌ (٢٧٥٨) وَاللَّفْظُ لَهُ .

(٢) الغَرْغَرَةُ : بُلُوغُ الرُّوحِ الحُلْقُومَ .

(٣) «حَسَنٌ» أَخْرَجَهُ التِّرمِذْيّ (٣٧٨٤)،وابْنُ مَاجَة (٤٢٥٣) وَحَسَّنَهُ الأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ التِّرمِذْيّ (٢٨٠٨) .

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأَنْعَامُ: ١٥٨].

وَهَذَا البَعْضُ هُوَ طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا.

٦ - أَنْ التَّحَلُّلِ مِنَ المَظَالِمِ:

التَّوْبَةُ تَكُونُ فِي حَقِّ اللهِ وَحَقِّ العِبَادِ، وَمَا تَقَدَّمَ مِنَ الشُّرُوطِ إِنَّمَا هُوَ فِي حَقِّ اللهِ.

وَيُضَافُ هَذَا الشَّرْطُ فِيمَا إِذَا كَانَ الذَّنْبُ مُتَعَلِّقٌ بِحَقِّ العِبَادِ، فَإِنْ كَانَ مَالاً أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْهِ، وَإِنْ كَانَ حَدَّ قَذْفٍ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وَإِذَا كَانَ غَيْبَةً اسْتَحَلَّهُ مِنْهَا، وَهَذَا إِذَا لَمْ يَتَرَتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ مَفْسَدَةٌ أَعْظَمُ.

وَقَالَ بَعْضُ العُلَمَاءِ:

(لاَ تَذْهَبُ إِلَيْهِ بَلْ فِيهِ تَفْصِيلٌ ! فَإِنْ كَانَ قَدْ عَلِمَ بِهَذِهِ الغَيْبَةِ فَلا بُدَّ أَنْ تَذْهَبَ إِلَيْهِ وَتَسْتَحِلَّهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلِمَ فَلاَ تَذْهَبَ إِلَيْهِ، وَاسْتَغْفِرَ لَهُ، وَتَحَدَّثْ بِمَحَاسِنِهِ فِي المَجَالِسِ الَّتِي كُنْتَ تَغْتَابُهُ فِيهَا؛ فَإِنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ) [١].

وَهَذَا القَوْلُ أَعْدَلُ الأَقْوَالِ وَأَحْسَنُهُ.

وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَىٰ وُجُوبِ التَحَلُّلِ مِنَ المَظَالِمِ مَا جَاءَ فِي صَحِيحِ البُخَارِيِّ [٢]،

(١) « شَرْحُ رِيَاضِ الصَّالِحِينَ » لابْنِ عُثَيْمِين (١/ ٩٠).
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٢٤٤٩).

مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «**مَنْ كَانَ لأَخِيْهِ مَظْلَمَةٍ مِنْ مَالٍ أَوْ عِرْضٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ اليَوْمِ؛ قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِيْنَارٌ وَلا دِرْهَمٌ إِلَّا الحَسَنَاتِ وَالسَّيئَاتِ**».

وَلَكِنْ مَنْ لَمْ يَقْدِرُ عَلَىٰ الإِيْصَالِ بَعْدَ بَذْلِ الوُسْعِ فِي ذَلِكَ، فَعَفْوُ اللهِ مَأْمُولٌ، فَإِنَّهُ يَضْمَنُ التَّبِعَاتِ، وَيُبَدِّلُ السَّيِّئَاتِ حَسَنَاتٍ»[1].

(١) فَتْحُ البَارِيّ (١١/ ١٠٦).

الفَصْلُ السَّادِسُ

ثَمَرَةُ التَّوْبَةِ

لِلتَّوْبَةِ ثَمَرَتَانِ:

إِحْدَاهُمَا: تَكْفِيْرُ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ يَصِيْرَ كَمَنْ لا ذَنْبَ لَهُ.

وَالثَّانِيَةُ: نَيْلُ الدَّرَجَاتِ حَتَّىٰ يَصِيْرَ حَبِيْبًا.

وَلِلتَّكْفِيْرِ - أَيْضًا - دَرَجَاتٌ:

فَبَعْضُهُ مَحْو لأَصْلِ الذَّنْبِ بالكُلِّيَةِ.

وَبَعْضُهُ تَخْفِيْفٌ لَهُ، وَتَيَفَاوَتُ ذَلِكَ بِتَفَاوتِ دَرَجَاتِ التَّوْبَةِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ - رَحِمَهُ اللهُ -:

«لأَهْلِ الذُّنُوبِ ثَلاثَةُ أَنْهَارٍ عِظَامٍ يَتَطَهَّرُوْنَ بِهَا فِي الدُّنْيَا، فَإِنْ لَمْ تَفِ بِطُهْرِهِمْ طُهِّرُوا فِي نَهْرِ الجَحِيْمِ يَوْمَ القِيَامَةِ:

[١] نَهْرُ التَّوْبَةِ النَّصُوْحِ.

[٢] وَنَهْرُ الحَسَنَاتِ المُسْتَغْرِقَةِ للأَوْزَارِ المُحِيْطَةِ بِهَا.

[٣] وَنَهْرُ المَصَائِبِ العَظِيْمَةِ المُكَفِّرَةِ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ خَيْرًا أَدْخَلَهُ أَحَدَ هَذِهِ الأَنْهَارِ الثَّلاثَةِ فَيَرِدُ القِيَامَةَ طَيِّبًا طَاهِرًا، فَلَمْ يَحْتَجْ إِلَىٰ تَطْهِيْرٍ رَابِعٍ»[١].

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ» (٤/ ٨٨).

الفَصْلُ السَّابِعُ
عَلامَةُ التَّوْبَةِ المَقْبُولَةِ

لِقَبُولِ التَّوْبَةِ عَلامَةٌ، يَعْرِفُهَا أَهْلُ العِلْمِ بِاللهِ، الَّذِيْنَ أَخْلَصُوا أَعْمَالَهُمْ لِخَالِقِهِمْ وَصَدَقُوا اللهَ فِي تَوْبَتِهِمْ.

فَمِنْ تِلْكَ العَلامَاتِ مَا ذَكَرَهُ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

(١) أَنْ يَكُونَ بَعْدَ التَّوْبَةِ خَيْرًا مِمَّا كَانَ قَبْلَهَا.

(٢) أَنَّهُ لا يَزَالُ الخَوْفُ مُصَاحِبًا لَهُ، لا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ؛ فَخَوْفُهُ مُسْتَمِرٌّ إِلَىٰ أَنْ يَسْمَعَ قَوْلَ الرُّسُلِ لِقَبْضِ رُوْحِهِ:، فَهُنَا يَزُولُ الخَوْفُ. ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فُصِّلَت:٣٠].

(٣) انْخِلاَعُ قَلْبِهِ، وَتَقَطُّعِهِ نَدَمًا وَخَوْفًا، وَهَذَا عَلَىٰ قَدْرِ عِظَمِ الجِنَايَةِ وَصِغَرِهَا، وَهَذَا تَأْوِيْلُ ابْنُ عُيَيْنَةَ لِقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة:١١٠].

قَالَ: تَقَطُّعَهَا بِالتَّوْبَةِ، وَلاَ رَيْبَ أَنَّ الخَوْفَ الشَّدِيْدَ مِنَ العُقُوبَةِ العَظِيْمَةِ يُوجِبُ انْصِدَاعَ القَلْبِ وَانْخِلاعِهِ؛ وَهَذَا هُوَ تَقَطُّعِهِ، وَهَذَا حَقِيْقَةُ التَّوْبَةِ، لأَنَّهُ يَتَقَطَّعُ قَلْبُهُ حَسَرَاتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطَ حَسْرَةً وَخَوْفًا، تَقَطَّعَ فِي الآخِرَةِ إِذَا

حَقَّتْ الحَقَائِقُ، وَعَايَنَ ثَوَابَ المُطِيعِيْنَ، وَعِقَابَ العَاصِيْنَ، فَلا بُدَّ مِنْ تَقَطُّعِ القَلْبِ إمَّا في الدُّنْيَا وَإمَّا في الآخِرَةِ.

(٤) كَسْرَةٌ خَاصَّةٌ تَحْصُلُ لِلْقَلْبِ لا يُشْبِهُهَا شَيْءٌ، وَلا تَكُونُ لِغَيْرِ المُذْنِب، لا تَحْصُلُ بِجُوْعٍ، وَلا رِيَاضَةٍ، وَلا حُبٍّ مُجَرَّدٍ، وَإنَّمَا هِيَ أَمْرٌ وَرَاءُ هَذَا كُلِّه؛ تَكْسِرُ القَلْبَ بَيْنَ يَدَي الرَّبِّ كَسْرَةً تَامَّةً، قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ مِنْ جَمِيْعِ جِهَتِهِ، وَأَلْقَتْهُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ طَرِيْحًا ذَلِيْلاً خَاشِعًا؛ كَحَالِ عَبْدٍ خَائِنٍ آبِقٍ مِنْ سَيِّدِه؛ فَأُخِذَ فَأُحْضِرَ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ بُدًا وَلا عَنْهُ عَنَاءً، وَلا مِنْهُ مَهْرَبًا، وَعَلِمَ أَنَّ حَيَاتَهُ وَسَعَادَتَهُ وَفَلاحَهُ وَنَجَاحَهُ فِي رِضَاهُ عَنْهُ، وَقَدْ عَلِمَ إحَاطَةَ سَيِّدِهِ بِتَفَاصِيْلِ جِنَايَتِهِ، هَذَا مَعَ حُبِّهِ لِسَيِّدِهِ، وَشِدَّةِ حَاجَتِهِ إلَيْهِ، وَعِلْمِهِ بِضَعْفِهِ وَعَجْزِهِ، وَقُوَّةِ سَيِّدِهِ، وَذُلِّهِ وَعِزِّ سَيِّدِهِ.

فَيَجْتَمِعُ مِنْ هَذِهِ الأَحْوَالِ كَسْرِهِ وَذُلِّهِ، وَخُضُوعٌ مَا أَنْفَعُهَا لِلعَبْدِ، وَمَا أَجْدَىٰ عَائِدَتُهَا عَلَيْهِ ! وَمَا أَعْظَمَ جَبْرِهِ، وَمَا أَقْرَبُهُ بِهَا مِنْ سَيِّدِهِ ! فَلَيْسَ شَيْءٌ أَحَبُّ إلَىٰ سَيِّدِهِ مِنْ هَذِهِ الكَسْرَةِ، وَالخُضُوعِ وَالتَّذَلُّلِ، والإخْبَاتِ وَالانْطِرَاحِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالاسْتِسْلامِ لَهُ.

فَلِلَّهِ مَا أَحْلَىٰ قَوْلَهُ فِي هَذِهِ الحَالِ: (أَسْأَلُكَ بِعِزِّكَ وَذُلِّي إلَّا رَحِمْتَنِي، أَسْأَلُكَ بِقُوَتِكَ وَضَعْفِي، وَبِغِنَاكَ عَنِّي وَفَقْرِي إلَيْكَ، هَذِهِ نَاصِيَتِي الكَاذِبَةِ الخَاطِئَةِ بَيْنَ يَدَيْكَ، عَبِيْدُكَ سِوَاىَ كَثِيْرٌ، وَلَيْسَ لِي سَيِّدٌ سِوَاكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَىٰ مِنْكَ إلَّا إلَيْكَ، أَسْأَلُكَ مَسْأَلَةَ المِسْكِيْنِ، وَأَبْتَهِلُ إلَيْكَ ابْتِهَالَ الخَاضِعِ الذَّلِيْلِ، وَأَدْعُوكَ دُعَاءَ الخَائِفِ الضَّرِيْرِ؛سُؤَالَ مَنْ خَضَعَتْ لَكَ

رَقَبَتُهُ، وَرَغِمَ لَكَ أَنْفُهُ، وَفَاضَتْ لَكَ عَيْنَاهُ، وَذَلَّ لَكَ قَلْبُهُ).

يَـا مَـنْ أَلُــوذُ بِـهِ فِيْـمَا أُؤَمِّـلُـهُ
وَمَــنْ أَعُــوذُ بِـهِ مِمَّـا أُحَــاذِرُه

لا يَجْـبُر النَّاسُ عَظْماً أَنْت كَـاسِرُهُ
وَلاْ يَهِيْضُوْنَ عَظْمَاً أَنْـت جَابِرُه

فَهَذَا وَأَمْثَالُهُ مِنْ آثَارِ التَّوْبَةِ المَقْبُولَةِ، فَمَنْ لَمْ يَجِدُ ذَاكَ فِي قَلْبِهِ فَلْيَتَّهِمْ تَوْبَتَهُ، وَلْيَرْجِعُ إِلَىٰ تَصْحِيْحِهَا، فَمَا أَصْعَبَ التَّوْبَةُ الصَّحِيْحَةُ بِالحَقِيْقَةِ، وَمَا أَسْهَلَهَا بِاللِّسَانِ وَالدَّعْوَىٰ ! وَمَا عَالَجَ الصَّادِقُ بِشَيْءٍ أَشَقُّ عَلَيْهِ مِنْ التَّوْبَةِ الخَالِصَةِ الصَّادِقَةِ، وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ» (١).

إِتِّهَامِ التَّوْبَةُ:

مَنْ وَجَدَ عَلامَةً وَاحِدَةً مِنْ العَلامَاتِ الآتِيَةِ؛ فَعَلَيْهِ أَنْ يَتَّهِمَ تَوْبَتَهُ:

١ - لا يَتَيَقَّنْ أَنَّهُ أَدَّىٰ هَذَا الحَقِّ عَلَىٰ الوَجْهِ المَطْلُوب.

٢ - أَنَّهُ تَابَ طَلَبًا لِلرَاحَةِ مِنَ الكَدِّ فِي تَحْصِيْلِ الذَّنْب، أَوْ اتِّقَاءِ مَا يَخَافُهُ عَلَىٰ عِرْضِهِ وَمَالِهِ وَمَنْصِبِهُ، أَوْ لِضَعْفِ دَاعِي المَعْصِيَةِ فِي قَلْبِهِ.

٣ - ضَعْفُ العَزِيْمَةِ وَالْتِفَاتُ القَلْبِ إِلَىٰ الذَّنْبِ الفِيْنَةُ بَعْدَ الفِيْنَةِ، وَتَذَكَّرُ حَلاوَةَ مُوَاقَعَتِهِ، فَرُبَّمَا تَنَفَّسَ، وَرُبَّمَا هَاجَ هَائِجَهُ.

---

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ» (١/ ١٩٢ - ١٩٣).

٤ – طَمَأْنِينَتُهُ، وَوُثُوقه مِنْ نَفْسه بِأَنَّهُ قَدْ تَابَ، حَتَّىٰ كَأَنَّهُ قَدْ أُعْطِىٰ مَنْشُورًا بِالأَمَانِ، فَهَذَا مِنْ عَلامَةِ التُّهْمَةِ.

٥ – جُمُودُ العَيْنِ واسْتِمْرَارُ الغَفْلَةِ، لا يَسْتَحْدِثُ بَعْدَ التَّوْبَةِ أَعْمالاً صَالِحَةً لَمْ تَكُنْ لَهُ قَبْلَ الخَطِيْئَةِ [١].

(١) «مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ» (١/ ٣٤٥ – ٣٤٦).

الفَصْلُ الثَّامِنُ

أُمُورٌ تُعِيْنُ عَلَىٰ التَّوْبَةِ

كَثِيْرٌ مِن النَّاسُ لاَ يَخْفَىٰ عَلَيْهِ حُرْمَةُ مَا يَفْعَلَهُ أَوْ يَتْرُكَهُ، وَلا يَبْحَثُ عَنْ ذَلِكَ لِعِلْمِه بِهِ، وَإِنَّمَا يَبْحَثُ فِي السُّبُلِ المُعِيْنَةِ لَهُ عَلَىٰ التَّرْكِ أَوْ الفِعْلِ [١].

فَمِنْ تِلْكَ الأُمُورِ مَا يَأْتِي:

١ - الإِخْلاصُ للهِ والإِقْبَالُ عَلَيْهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ:

فَالإِخْلاصُ للهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ أَنْفَعَ الأَدْوِيَة، فَإِذَا أَخْلَصَ الإِنْسَانُ للهِ، وَصَدَقَ فِي طَلَبِ التَّوْبَةِ أَعَانَهُ اللهُ عَلَيْهَا، وَيَسَّرَهُ لَهَا، وَأَمَدَّهُ بِأَلْطَافٍ لاَ تَخْطُرُ بِالْبَالِ، وَصَرَفَ عَنْهُ الآفَاتِ الَّتِي تَعْتَرِضُ طَرِيْقَهُ وَتَصُدُّهُ عَنْ تَوْبَتِهِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

(فَإِنَّ القَلْبَ إِذَا ذَاقَ طَعْمَ عِبَادَةِ اللهِ، والإِخْلاصَ لَهُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيْءٌ ـ قَطُّ ـ أَحْلَىٰ مِنْ ذَلِكَ، وَلا أَلَذَّ، وَلا أَمْتَعَ وَلاَ أَطْيَبَ.

وَالإِنْسَانُ لا يَتْرُكُ مَحْبُوبًا إِلَّا بِمَحْبُوبٍ آخَرَ يَكُونُ أَحَبَّ إِلَيْهِ، أَوْ خَوْفًا مِنْ مَكْرُوهٍ؛ فَالحُبُّ الفَاسِدُ إِنَّمَا يَنْصَرِفُ القَلْبُ عَنْهُ بِالحُبِّ الصَّالِحِ، أَوْ بِالخَوْفِ مِنَ الضَّرَرِ.

(١) انْظُر: «التَّوْبَةُ وَظِيْفَةُ العُمُرِ» لمُحَمَّد بن إبْرَاهِيم الحَمْد(١٨٧)، بتَصَرُّف.

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- فِي حَقِّ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يُوسُف: ٢٤].

فالله يُصْرِفُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يَسُوْؤُهُ مِنْ المَيْلِ إلىٰ الصُّورِ وَالتَّعَلُّقِ بِهَا، وَيَصْرِفُ عَنْهُ الفَحْشَاءَ بإخْلاصِهِ لله.

وَلِهَذَا يَكُونُ قَبْلَ أَنْ يَذْوقَ حَلاَوَةَ العُبُودِيَّةِ للهِ والإخْلاَصِ لَهُ، بِحَيْثُ تَغْلِبُهُ نَفْسُهُ عَلَىٰ اتِّباعِ هَوَاهَا؛ فَإِذَا ذَاقَ طَعْمَ الإخْلاَصِ، وَقَوِيَ فِي قَلْبِهِ انْقَهَرَ بِلا عِلاجٍ» [١].

وَقَالَ -رَحِمَهُ اللهُ- عَنْ يُوسُفَ -عَلَيْهِ السَّلَامُ-:

« فَأَخْبَرَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- أَنَّهُ صَرَفَ عَنْ يُوْسُفَ السُّوءَ مِنَ العِشْقِ، وَالفَحْشَاءِ مِنَ الفِعْلِ بإخْلاَصِهِ، فَإِنَّ القَلْبَ إِذَا أُخْلِصَ وَأَخْلَصَ عَمَلَهُ لله، لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْهُ عِشْقُ الصُّوَرِ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنَ القَلْبِ الفَارِغِ» [٢].

وَقَالَ: (وَبِذَلِكَ يُصْرَفُ عَنْ أَهْلِ الإخْلاَصِ للهِ السَّوْءَ وَالفَحْشَاءِ، ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾

[يُوسُف: ٢٤].

فَإِنَّ المُخْلِصَ لله ذَاقَ مِنْ حَلاوَةِ عُبُودِيَّتِهِ مَا يَمْنَعُهُ مِنْ مَحَبَّةِ غَيْرِهِ؛ إِذْ لَيْسَ عِنْدَ القَلْبِ السَّلَيْمِ أَحْلَىٰ، وَلا أَلَذَّ وَلا أَطْيَبَ وَلا أَسَرَّ، وَلا أَنْعَمَ مِنْ حَلاَوَةِ

(١) « العُبُوْدِيَّة » (٩٩) .
(٢) « العُبُوْدِيَّة » (١٠٠) .

الإِيْمَانِ، المُتَضَمِّنُ عُبُودِيتِهِ وَمَحَبَّتِهِ لَهُ، وَإِخْلاَصِ الدِّيْنِ لَهُ.

وَذَلِكَ يَقْتَضِي انْجِذَابَ القَلْبِ إِلَىٰ اللهِ، فَيَصِيْرُ القَلْبُ مُنِيْبًا إِلَىٰ اللهِ خَائِفًا مِنْهُ، راغبًا، راهبًا) (١).

وَقَالَ: (إِذَا كَانَ العَبْدُ مُخْلِصًا للهِ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ، فَأَحْيَا قَلْبَهُ، وَاجْتَذَابَهُ إِلَيْهِ، فَيَنْصَرِفَ عَنْهُ مَا يُضَادُّ ذَلِكَ مِنَ السَّوءِ وَالفَحْشَاءِ، وَيَخَافُ مِنْ ضِدِّ ذَلِكَ.

بِخِلاَفِ القَلْبِ الَّذِي لَمْ يُخْلِصَ للهِ، فَإِنَّ فِيْهِ طَلَبًا وَإِرَادَةً، وَحُبًّا مُطْلَقًا؛ فَيَهْوَىٰ كُلَّ مَا يَسْنَحُ لَهُ،وَيَتَشَبَّثْ بِمَا يَهْوَاهُ كَالغُصْنِ، أَيُّ نَسِيْمٍ مَرَّ بِهِ عَطَفَهُ، وَأَمَالَهُ، فَتَارَةً تَجْتَذِبَهُ الصُّورِ المُحْرَّمَةِ وَغَيْرِ المُحَرَّمَةِ، فَيَبْقَىٰ أَسِيْرًا عَبْدًا لِمَنْ لَوْ اتَّخَذَ هُوَ عَبْدًا لَهُ، لَكَانَ ذَلِكَ عَيْبًا وَنَقْصًا وَذَمًّا.

وَتَارَةً يَجْتَذِبُهُ الشَّرَفُ وَالرِّئَاسَةُ، فَتُرْضِيْهِ الكَلِمَةُ، وَتُغْضِبُهُ الكَلِمَةُ، وَيَسْتَعْبِدُ مَنْ يُثْنِي عَلَيْهِ وَلَوْ بِالبَاطِلِ، وَيُعَادِي مَنْ يَذُمُّهُ وَلَوْ بِالحَقِّ.

وَتَارَةً يَسْتَعْبِدُهُ الدِّرْهَمُ وَالدِّيْنَارُ، وَأَمْثَالُ ذَلِكَ مِنَ الأُمُورِ الَّتِي تَسْتَعْبِدُ القُلُوبَ، والقُلُوبُ تَهْوَاهُ، فَيَتَّخِذُ إِلَيْهِ هَوَاهُ، وَيَتَّبِعُ بِغَيْرِ هُدَىً مِنَ اللهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ خَالِصًا للهِ، عَبْدًا لَهُ، قَدْ صَارَ قَلْبُهُ مُعَبَّدًا لِرَبِّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيْكَ لَهُ، بِحَيْثُ يَكُونَ اللهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُ، وَيَكُونُ ذَلِيْلاً لَهُ خَاضِعًا، وَإِلاَّ اسْتَعْبَدْتُهُ الكَائِنَات، وَاسْتَوْلَتْ عَلَىٰ قَلْبِهِ الشَّيَاطِيْنَ، وَصَارَ فِيْهِ مِنَ السُّوءِ وَالفَحْشَاءِ مَا لاَ يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ، وَهَذَا أَمْرٌ ضَرُورِيٌّ لا حِيْلَةَ فِيْهِ (٢).

---

(١) « العُبُوْدِيَّة » (١٣٩ – ١٤٠).

(٢) « العُبُوْدِيَّة » (١٤٠ – ١٤٢).

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ:

(فَالْمُؤْمِنُ الْمُخْلِصُ لله مِنْ أَطْيَبِ النَّاسِ عَيْشًا، وَأَنْعَمُهُمْ بَالاً، وَأَشْرَحِهِم صَدْرًا، وَأَسَرَّهُمْ قَلْبًا، وَهَذِهِ جَنَّةٌ عَاجِلَةٌ قَبْلَ الجَنَّةُ الآجِلَةِ) [١].

٢ - امْتِلاءُ القَلْبِ مِنْ مَحَبَّةِ اللَّهِ ـ عَزَّ وَجَلَّ:

(فَالْمَحَبَّةُ أَعْظَمُ مُحَرِّكَاتِ القُلُوبِ؛ فَهِيَ البَاعِثُ الأَوَّلُ للأَفْعَالِ والتُّرُوكِ.

وَمَا أُتَىٰ مَنْ اسْتُذِلَّ وَاسْتُعْبِدَ لِغَيْرِ الله بِمِثْلِ مَا أُتِي مِنْ بَابِ المَحَبَّةِ؛ فَالْقَلْبُ إِذَا خَلاَ مِنْ مَحَبَّةِ الله تَنَاوَشَتْهُ الأَخْطَارُ، وَتَسَلَّطَتْ عَلَيْهِ سَائِرُ الرَّغَائِبِ والمَحْبُوبَاتِ، فَشَتَّتْهُ، وَفَرَّقَتْهُ، وَذَهَبَتْ بِهِ كُلَّ مَذْهَبٍ.

فَإِذَا امْتَلأَ القَلْبُ مِنْ مَحَبَّةِ الله بِسَبَبِ العُلُومِ النَّافِعَةِ وَالأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، كَمُلَ أُنْسُهُ، وَطَابَ نَعِيْمُهُ، وَسَلِمَ مِنَ التَّعَلُّقِ بِسَائِرِ الشَّهَوَاتِ، وَهَانَ عَلَيْهِ فِعْلُ سَائِرِ القُرُبَاتِ؛ فَمِنَ الْمُتَقَرِّرِ أَنَّ فِي القَلْبِ فَقْرًا ذَاتِيًّا، وَجَوْعَةً وَشَعْثًا وَتَفَرُّقًا.

وَلا يُغْنِي هَذَا القَلْبَ وَلا يُلَمُّ شَعْثُهُ، وَلا يَسُدُّ خَلَّتَهُ إِلَّا عِبَادَةُ الله، وَمَحَبَّتُهُ، فَأَجْدَرُ بِمَنْ يُرِيْدُ الإِقْبَالَ عَلَىٰ الله، وَالإِنَابَةَ إِلَيْهِ أَنْ يَمْلأَ قَلْبَهُ مِنْ مَحَبَّةِ الله؛ فَفِي ذَلِكَ سُرُورُهُ، وَنَعِيْمُهُ، وَأُنْسُهُ، وَفَلاحُهُ.

قَالَ ابْنُ تَيْمِيَةِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ:

(وَالْمَحَبَّةُ الْمَحْمُودَةُ هِيَ المَحَبَّةُ ـ النَّافِعَةُ، وَهِيَ الَّتِي تَجْلِبُ لِصَاحِبِهَا مَا

---

(١) جَامِعُ الرَّسَائِل » (٢/ ٢٠٢).

يَنْفَعُهُ وَهُوَ السَّعَادَةُ، والضَّارَّةُ هِيَ الَّتِي تَجْلِبُ لِصَاحِبِهَا مَا يَضُرُّهُ وَهُوَ الشَّقَاءُ) [١].

وَقَالَ: (فَفِي قُلُوبِ بَنِي آدَمَ مَحَبَّةٌ لِمَا يَتَأَلَّهُونَهُ وَيَعْبُدُونَهُ، وَذَلِكَ هُوَ قَوَامُ قُلُوبِهِمْ، وَصَلاحُ نُفُوسِهِم.

كَمَا أَنَّ فِيْهِم مَحَبَّةً لِمَا يَطْعُمُونَهُ وَيَنْكِحُونَهُ، وَبذَلِكَ تَصْلُحُ حَيَاتِهِمْ، وَيَدُوْمُ شَمْلَهُمْ وَحَاجَتِهِم إلَىٰ الغِذَاءِ، فَإِنَّ الغِذَاءَ إِذَا فُقِدَ يَفْسَدُ الجِسْمُ، وَبِفَقْدِ التَّأَلُّهُ تَفْسُدُ النَّفْسُ).

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللّهُ ـ:

(فَكَيْفَ بِالمَحَبَّةِ الَّتِي هِيَ حَيَاةُ القُلُوبِ، وَغِذَاءُ الأَرْوَاحِ، وَلَيْسَ لِلْقَلْبِ لَذَّةٌ، وَلا نَعِيْمٌ، وَلا فَلاحٌ، وَلا حَيَاةٌ إِلَّا بِهَا، وَإِذَا فَقَدَهَا القَلْبُ كَانَ أَلَمَهُ أَعْظَمُ مِنْ أَلَمِ العَيْنِ إِذَا فَقَدَتْ نُورَهَا، والأُذُنَ إذا فَقَدَتْ سَمْعَهَا، وَالأَنْفُ إِذَا فَقَدَتْ شَمَّهَا، وَاللِّسَانَ إِذَا فَقَدَ نُطْقَهُ ؟!.

بَلْ فَسَادُ القَلْبِ إِذَا خَلا مِنْ مَحَبَّةِ فَاطِرِهِ وَبَارِئِهِ وَإِلَهِهِ الحَقِّ أَعْظَمُ مِنْ فَسَادِ البَدَنِ إِذَا خَلاَ مِنَ الرُّوْحِ.

وَهَذَا الأَمْرُ لاَ يَصْدُقُ بِهِ إِلَّا مَنْ فِيْهِ حَيَاةٌ، وَمَا لِجُرْحٍ بِمَيِّتٍ إِيْلاَمُ) [٢].

وَقَالَ ـ رَحِمَهُ اللّهُ ـ عَنْ مَحَبَّةِ اللّهِ ـ:

(وَهِيَ مِنْ أَقْوَىٰ الأَسْبَابِ فِي الصَّبْرِ عَنْ مُخَالَفَتِهِ وَمَعَاصِيْهِ؛ فَإِنَّ المُحِبَّ

---

(١) « المَرْجِعُ السَّابِقُ » (٢٣٠٢) .

.(٢) « الدَّاءُ وَالدَّوَاءُ » (٥٤١ – ٥٤٢)

لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ ، وَكُلَّمَا قَوِيَ سُلْطَانُ المَحَبَّةُ فِي القَلْبِ كَانَ اقْتِضَاؤُهُ لِلطَّاعَةِ وَتَرْكِ المُخَالَفَاتِ أَقْوَىٰ، وَإِنَّمَا تَصْدُرُ المَعْصِيَةُ وَالمُخَالَفَةُ مِنْ ضَعفِ المَحَبَّةِ وَسُلْطَانِهَا، وَفَرْقٌ بَيْنَ مَنْ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ تَرْكِ مَعْصِيَةِ سَيِّدِهِ خَوْفُهُ مِنْ سَوْطِهِ وَعُقُوبَتِهِ وَبَيْنَ مَنْ يَحْمِلُهُ عَلَىٰ ذَلِكَ حُبُّهُ لِسَيِّدِهِ) [١].

وَقَالَ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

(فَالمُحِبُّ الصَّادِقُ عَلَيْهِ رَقِيبٌ مِنْ مَحْبُوبِهِ يَرْعَىٰ قَلْبُهُ وَجَوَارِحَهُ، وَعَلامَةُ صِدْقِ المَحَبَّةِ شُهُودُ هَذَا الرَّقِيبِ وَدَوَامِهِ، وَهَا هُنَا لَطِيْفَةٌ يَجِبُ التَّنَبُّهُ لَهَا، وَهِيَ أَنَّ المَحَبَّةَ المُجَرَّدَةَ لا تُوْجِبُ نَوْعَ أُنْسٍ وَانْبِسَاطٍ وَتَذَكُّرٍ وَاشْتِيَاقٍ، وَلِهَذَا يَخْتَلِفُ عَنْهَا أَثَرُهَا، وَمُوجِبُهَا، وَيُفَتِّشُ العَبْدُ قَلْبَهُ فَيَرَىٰ نَوْعَ مَحَبَّةِ اللهِ، وَلَكِنْ لا تَحْمِلْهُ عَلَىٰ تَرْكِ مَعَاصِيْهِ، وَسَبَبُ ذَلِكَ تَجَرَّدَهَا عَنْ الإِجْلالِ وَالتَّعْظِيْمِ، فَمَا عَمَرَ الْقَلْبَ شَيْءٌ كَالمَحَبَّةِ المُقْتَرِنَةُ بِإِجْلالِهِ، وَتَعْظِيْمِهِ، وَتِلْكَ مِنْ أَفْضَلِ المَوَاهِبِ أَوْ أَفْضَلِهَا، وَذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيْهِ مَنْ يَشَاءُ) [٢].

٣ - التَّأَسِّي بِرَسُولِ اللهِ ـ ﷺ ـ:

غُفِرَ لِرَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، وَمَعَ هَذَا فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ كَمَا فِي (صَحِيْحِ مُسْلِمٍ) مِنْ حَدِيْثِ أَبِي بُرْدَةٍ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ـ: «**يَأَيُّهَا النَّاسُ ! تُوبُوا إِلَىٰ اللهِ جَمِيْعًا،**

(١) « طَرِيْقُ الهِجْرَتَيْنِ » (٤٤٩).
(٢) « المَرْجِعُ السَّابِقُ » (٤٤٩ – ٤٥٠).

فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةً» (١).

وَيَقُولُ كَمَا فِي (صَحِيْحِ البُخَارِي) مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ: **«واللهِ إِنِّي لأَسْتَغْفِرِ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي اليَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِيْنَ مَرَّةً»** (٢).

وَيَقُولُ كَمَا فِي(صَحِيْحِ مُسْلِمٍ)مِنْ حَدِيْثِ الأَغَرِّ بْنُ يَسَارِ المَزْنِي -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: **«إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَىٰ قَلْبِي،وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرَ اللهَ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةً»**(٣).

وَفِي (صَحِيْحِ البُخَارِيّ) مِنْ حَدِيْثِ عَائِشَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ـ قَالَتْ: (مَا صَلَّىٰ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- صَلاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيْهِ ﴿**إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١**﴾ إِلَّا يَقُولُ فِيْهَا: **«سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لِي»** (٤).

٤ - المُجَاهَدَةُ:

المُجَاهَدَةُ عَظِيْمَةُ النَّفعِ، كَثِيْرَةُ الجَدْوَىٰ، مُعِيْنَةٌ عَلَىٰ الإِقْصَارِ عَنِ الشَّرِّ، دَافِعَةُ إِلَىٰ المُبَادَرَةِ إِلَىٰ الخَيْرِ؛ ذَلِكَ أَنَّ النُّفُوسَ طَلْعَةٌ إِلَىٰ الشُّرُورِ، مُؤْثِرَةٌ لِلْكَسَلِ وَالبَطَالَةِ؛ فَإِذَا رَاضَهَا الإِنْسَانُ وَجَاهَدُهَا فِي ذَاتِ اللهِ فَلْيُبْشِرُ بِالخَيْرِ، وَالإِعَانَةِ والهِدَايَةِ.

---

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٢) .
(١) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٦٣٠٧).
(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ (٢٧٠٢) .
(٣) أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ (٤٩٦٨).

قَالَ - تَعَالَىٰ- : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [العَنْكَبُوتُ: ٦٩].

قَالَ ابْنُ المُبَارِكِ ـ رَحِمَهُ اللّهُ ـ:

وَمِنَ البَلاءِ لِلْبَلاْءِ عَلاْمَةُ
الْعَبْدُ عَبْدُ النَّفْسِ فِي شَهَواتِهِ
أَلاَّ يُرَىٰ لَكَ عَنْ هَوَاْكَ نُزُوْعُ
وَالْحُرُّ يَشْبَعُ تَارَةً وَيَجُوْعُ[1]

وَقَالَ الآخَرُ:

وَالنَّفْسُ إِنْ أَعْطَيْتَهَاْ مُنَاهَاْ
فَاْغِرَةً نَحْوَ هَوَاْهَاْ فَاْهَاْ

وَقَالَ الآخَرُ:

إِذَاْ الْمَرْءُ أَعْطَىٰ نَفْسَهُ كُلَّ مَا اْشْتَهَتْ
وَلَمْ يَنْهَهَاْ تَاْقَتْ إِلَىٰ كُلِّ مَطْلَبِ

(١) «رَوْضَةُ المُحِبِّيْنَ» (٤٨١).

وَقَالَ أَبُو العَبَّاسِ النَّاشِئ:

إِذَا الْـمَرءُ يَحْمِيْ نَفْسَهُ حِل شَهْوَةٍ
لِـصِـحَـةِ أَيَــامٍ تَـبِـيْـدُ وَتَـنْـفَـدُ
فَـمَا بَـالُـهُ لاْ يَحْتَمِيْ مِـنْ حَرَامِهَا
لِـصِـحَـةِ مَـاْ يَـبْـقَـيَ لَـهُ وَيُخُـلَّـدُ

وَلا تَعْنِي الُمجَاهَدَةُ أَنْ يُجَاهِدَ المَرْءُ نَفْسَهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّاتٍ، وَإِنَّمَا يُجَاهِدْهَا فِي ذَاتِ اللهِ حَتَّىٰ المَمَاتِ.

فَإِذَا وَطَنَ عَلَىٰ الُمجَاهَدَةِ أَقْبَلَتْ عَلَيْهِ الخَيْرَاتُ وَانْهَالَتْ عَلَيْهِ البَرَكَاتُ.

قَالَ ابْنُ عَقِيْل ـ رَحِمَهُ اللّهُ ـ:

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مِنَ بَرَكَاتِ مُجَاهَدِةِ النَّفْسِ فِي حُقُوقِ اللهِ، وَالإِنْتَهَاءِ عَنْ مَحَارِمِ اللهِ، إِلَّا أَنَّهُ بِعْطِفُ عَلَيْكَ، فَيُسَخِّر هَالَك، وَيطَوِّعِهَا لأَمْرِك، حَتَّىٰ تَنْقَادَ لَكَ، وَيَسْقُطُ عَنْكَ مؤُونَهَةَ النِّزَاعِ لَهَا، حَتَّىٰ تَصِيرَ طَوْعَ يَدِكَ وَأَمْرِكَ، تُعَافَ الُمسْتَطَافُ عِنْدَهَا إِذَا كَانَ عَنْدَ اللهِ خَبِيْثًا، وَتُؤْثِرُ العَمَلَ للهِ وَإِنْ كَانَ عِنْدَهَا بِالأَمْسِ كَرِيْهًا، وَتَسْتَخَفَّهُ وَإِنْ كَانَ عَلَيْهَا ثَقِيْلاً، حَتَّىٰ تَصِيرَ رِقًّا لَكَ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ تَسْتَرِقُّكَ.

وَكَذَا كُلَّ مَنْ حَقَّقَ العُبُودِيَّةَ لِسَيِّدِهِ اسْتَعْبَدَ لَهُ مَنْ كَانَ يَمْلِكُهُ، وَأَلَانَ لَهُ مَا كَانَ يُعْجِزُهُ) [١].

(١) «الفُنُون» (٢/ ٤٩٦).

إلىٰ أَنْ قَالَ ـ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ ـ: «مَا أَبْرَكُ طَاعَةُ اللهِ عَلَىٰ الْمُطِيعُ؛ قَوْمٌ سَخَّرَ لَهُمْ الرِّيْحَ، وَالمِيَاهَ، وَالحَيَوَانَاتِ، وَقَوْمٌ أَعَاقَ عَلَيْهِمْ الحَوَائِجَ،وَكَسَرَهَا فِي صُدُورِهِم»[١].

٥ - قِصَرُ الأَمَلِ، وَتَذَكُّر الآخِرَةِ:

فَإِذَا تَذَكَّرَ المَرْءُ قِصَرَ الدُّنْيَا، وَسُرْعَة زَوَالِهَا، وَأَدْرَكَ أَنَّهَا مَزْرَعَةٌ لِلآخِرَةِ، وَفُرْصَةٌ لِكَسْبِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ وَتَذَكَّرَ مَا فِي الجَنَّةِ مِنَ النَّعِيْمِ المُقِيْمِ، وَمَا فِي النَّارِ مِنَ النَّكَالِ وَالعَذَابِ الأَلِيْمِ ـ أَقْصَرَ عَنِ الاسْتِرْسَالِ فِى الشَّهَوَاتِ، وَانْبَعَثَ إِلىٰ التَّوْبَةِ النَّصُوْحِ، وَتَدَارَكَ مَا فَاتَ بِالأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ.

قَصِّرِ الآمَالَ فِي الدُّنْيَا تَفُزْ
فَدَلِيْلُ الْعَقْلِ تَقْصِيْرُ الأَمَلِ

وَفِي (صَحِيْحِ البُخَارِيِّ)مِنْ حَدِيْثِ ابْنُ عُمَرِ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ: قَالَ: «أَخَذَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– بِمِنْكَبِي، فَقَالَ: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيْبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيْلٍ**»[٢].

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ـ يَقُولُ:(إِذَا أَمْسَيْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ الصَبَاحِ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلاَ تَنْتَظِرِ المَسَاءِ، وَخُذْ مِنْ صِحَتَكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ) .

(١) «الفُنُون» (٢/ ٤٩٦) .
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٤١٦).

قَالَ الإِمَامُ ابْنُ رَجَب ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ تَعْلِيْقًا عَلَىٰ هَذَا الحَدِيْث: (وَهَذَا الحَدِيْثُ أَصْلٌ فِي قِصَرِ الأَمَلِ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّ المُؤْمِنَ لاَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَتَّخِذَ الدُّنْيَا وَطَنًا وَمَسْكَنًا، فَيَطْمَئِنَّ فِيْهَا، وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ فِيْهَا كَأَنَّهُ عَلَىٰ جَنَاحِ سَفَرٍ يُهَيِّئُ جِهَازَهُ لِلرَّحِيْلِ، وَقَدْ اتَّفَقَتْ عَلَىٰ ذَلِكَ وَصَايَا الأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِمْ) (١).

قَالَ ابْنُ عَقِيْلٍ: (مَا تَصْفُو الأَعْمَالُ وَالأَحْوَالُ إِلَّا بِتَقْصِيْرِ الآمَالِ؛ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ عَدَّ سَاعَتَهُ الَّتِي هُوَ فِيْهَا كَمَرَضِ المَوْتِ حَسُنَتْ أَعْمَالُهُ، فَصَارَ عُمْرُهُ كُلُّهُ صَافِيًّا) (٢).

قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

(مَنْ تَفَكَّرَ فِي عَوَاقِبِ الدُّنْيَا حَسُنَتْ أَعْمَالُهُ، فَصَارَ عُمْرُهُ كُلُّهُ صَافِيًا) (٣).

وَقَالَ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

(أَعْجَبُ الأَشْيَاءِ اغْتِرَارُ الإِنْسَانِ بِالسَّلَامَةِ، وَتَأْمِيْلُهُ الإِصْلَاحَ فِيْمَا بَعْدُ. وَلَيْسَ لِهَذَا الأَمَلِ مُنْتَهَىٰ، وَلَا لِلاغْتِرَارِ حَدٌّ؛ فَكُلَّمَا أَصْبَحَ وَأَمْسَىٰ مُعَافَىٰ زَادَ الاغْتِرَارُ وَطَالَ الأَمَلُ) (٤).

---

(١) «جَامِعُ العُلُومِ وَالحِكَمِ» (٢/ ٣٧٧).
(٢) «الفُنُونُ» (٢/ ٥٤٦).
(٣) «صَيْدُ الخَاطِرِ» (٤٠)
(٤) «المَرْجِعُ السَّابِقُ» (٥٣٢).

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللَّهُ ـ:

(صِدْقُ التَّأَهُّبِ لِلِقَاءِ اللهِ مِنْ أَنْفَعِ مَا لِلْعَبْدِ وَأَبْلَغُهُ فِي حُصُولِ اسْتِقَامَتِهِ؛ فَإِنَّ مَنْ اسْتَعَدَّ لِلِقَاءِ اللهِ انْقَطَعَ قَلْبُهُ عَنِ الدُّنْيَا، وَمَا فِيهَا وَمَطَالِبِهَا، وَخَمَدَتْ مِنْ نَفْسِهِ نِيرَانُ الشَّهَوَاتِ، وَأَخْبَتَ قَلْبُهُ إِلَىٰ اللهِ، وَعَكَفَتْ هِمَّتُهُ عَلَىٰ اللهِ، وَعَلَىٰ مَحَبَّتِهِ، وَإِيثَارِ مَرْضَاتِهِ، وَاسْتَحْدَثَتْ هِمَّةً أُخْرَىٰ، وَعُلُومًا أُخَرْ، وَوُلِدَ وِلَادَةً أُخْرَىٰ، تَكُونُ نِسْبَةُ قَلْبِهِ فِيهَا إِلَىٰ الدَّارِ الآخِرَةِ كَنِسْبَةِ جِسْمِهِ إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ بَعْدَ أَنْ كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ فَيُوْلَدُ قَلْبُهُ وِلادَةً حَقِيْقِيةً كَمَا وُلِدَ جِسْمُهُ حَقِيْقَةً.

وَكَمَا كَانَ بَطْنُ أُمِّهِ حِجَابًا لِجِسْمِهِ عَنْ هَذِهِ الدَّارِ فَهَكَذَا نَفْسُهُ وَهَوَاهُ حِجَابٌ لِقَلْبِهِ عَنِ الدَّارِ الآخِرَةِ؛ فَخُرُوجُ قَلْبِهِ عَنْ نَفْسِهِ بَارِزًا إِلَىٰ الدَّارِ الآخِرَةِ كَخُرُوجِ جِسْمِهِ عَنْ بَطْنِ أُمِّهِ بَارِزًا إِلَىٰ هَذِهِ الدَّارِ) [١].

إِلَىٰ أَنْ قَالَ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: (وَالمَقْصُودُ أَنَّ صِدْقَ التَّأَهُّبِ هُوَ مُفْتَاحُ جَمِيعِ الأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ،وَالأَحْوَالِ الإِيْمَانِيَّةِ،وَمَقَامَاتِ السَّالِكِيْنَ إِلَىٰ اللهِ ،وَمَنَازِلِ السَّائِرِيْنَ إِلَيْهِ،مِنَ اليَقْظَةِ وَالتَّوْبَةِ،والإِنَابَةِ،وَالمَحَبَّةِ، وَالرَّجَاءِ، أَوْ الخَشْيَةِ، وَالتَّفْوِيْضِ، وَالتَّسْلِيْمِ، وَسَائِرِ أَعْمَالِ القُلُوبِ وَالجَوَارِحِ، فَمِفْتَاحُ ذَلِكَ كُلِّهِ صِدْقُ التَّأَهُّبِ وَالاسْتِعْدَادِ لِلِقَاءِ اللهِ، وَالمُفْتَاحُ بِيَدِ الفَتَّاحِ العَلِيْمِ،لاَ إِلَهَ غَيْرُهُ،وَلا رَبَّ سِوَاهُ) [٢].

---

(١) «طَرِيْقُ الهِجْرَتَيْنِ» (٢٩٧).
(٢) «المَرْجِعُ السَّابِقُ» (٢٩٨).

وَقَالَ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ مُتَحَدِّثًا عَنِ الأَسْبَابِ الَّتِي تُعِيْنُ الإنْسَانَ عَلَىٰ الصَّبْرِ عَلَىٰ المَعْصِيَةِ:

(وَالسَّبَبُ الثَّامِنُ قِصَر الأَمَل، وَعلْمه بسُرعَه انْتقَاله، وَأَنَّهُ كَمُسَافر دَخَلَ قَرْيَةً وَهُوَ مُزْمَعٌ عَلَىٰ الخُرُوج مِنْهَا، أَوْ كَرَاكِب قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ ثُمَّ سَارَ وَتَركَهَا، فَهُوَ لِعلْمه بقِلَّة مَقَامه وَسُرْعَة انْتقَاله حَرِيْصٌ عَلَىٰ تَرْك مَا يُثْقلُهُ حَمْلُهُ وَيَضُرُّهُ وَلا يَنْفَعُهُ، حَرِيْصٌ عَلَىٰ الانْتقَال بخَيْر مَا بحَضْرَته، فَلَيْسَ لِلعَبْدِ أَنفَعَ مِنْ قِصَرِ الأَمَلِ، وَلا أَضَرَّ مِنَ التَّسْوِيْفِ وَطُولِ الأَمَلِ)[١].

٦- العِلْمُ:

العِلْمُ نُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ، وَيُنْظَرُ مِنْ خلاله إِلَىٰ الأُمُور عَلَىٰ حَقِيْقَتِهَا، وَيَشْغَلُ صَاحِبُهُ بكُلِّ خَيْر وَيُشْغِلَهُ عَنْ كُلِّ شَرٍّ؛ فَإذا فُقِدَ العِلْمُ فُقِدَتْ البَصِيْرَةُ، وَحَلَّ الجَهْلُ، وَانْطَمَسَتْ المَعَالِمُ أَمَامَ الإنْسَانِ، وَاخْتَلَّ مِيْزَانُ الفَضِيْلَةُ وَالرَّذِيْلَةُ عِنْدَهُ؛ فَلَمْ يَعُدْ يُفَرِّقُ بَيْنَ مَا يَضُرُّهُ وَمَا يَنْفَعُهُ، فَيُصْبِحُ بِذَلِكَ عَبْدًا لِلشَّهْوَة، أَسِيْرًا لِلهَوَىٰ؛ فَمَا أُتِيَ الإنْسَانُ مِنْ بَاب كَمَا يُؤْتَىٰ مِنْ بَاب الجَهْل، فَحَرِّيٌّ بالعَاقِل النَّاصِح لِنَفْسِهِ أَلا يَبْخَسَ حَظَّهُ مِنَ العِلْمِ، وَأَنْ يَنَالَ وَلَوْ قَدْرًا يَسِيْرًا مِنْهُ.

وَمِنَ العِلْم فِي هَذَا السِّيَاق بعَاقبَة المَعَاصِي، وَقُبْحهَا وَرَذَالَتِهَا، وَدَنَاءَتِهَا، وَأَنَّ اللهَ إِنَّمَا حَرَّمَهَا وَنَهَىٰ عَنْهَا صِيَانَةً وَحِمَايَةً عَن الدَّنَايَا والرَّذَائِل كَمَا يَحْمِي الوَالِدُ الشَّفِيْقُ وَلَدَهُ عَمَّا يَضُرُّهُ. وَهَذَا السَّبَبُ يَحْمِلُ العَاقِلُ عَلَىٰ تَرْكِهَا وَلَوْ

---

(١) «المَرْجِعُ السَّابِقُ» (٤٥٤).

لَمْ يُعَلَّقْ عَلَيْهَا وَعِيدٌ بِالعَذَابِ)[١] .

٧ - الانْشِغَالُ بِمَا يَنْفَعُ وَتَجْذِبَ الوِحْدَةُ وَالفَرَاغُ:

الفَرَاغُ يَأْتِي عَلَىٰ رَأْسِ الأَسْبَابِ المُبَاشِرَةِ لِلانْحِرَافِ، فَالغَالِبِيَّةُ العُظْمَىٰ مِنَ الشَّبَابِ يُعَانِي مِنَ الفَرَاغِ، وَالفَرَاغُ طَرِيْقٌ إِلَىٰ الإِنْحِرَافِ، وَالشُّذُوذِ، وَتَدَهْوُرِ الأَخْلاقِ، وَضَيْعَةِ الأَدَبِ، فَإِذَا انْشَغَلَ الإِنْسَانُ بِمَا يَنْفَعُهُ دُنْيَا وَآخِرَةً لَمْ تَجِدْ الوَسَاوِسُ وَالشُّكُوكُ طَرِيْقَهَا إِلَىٰ قَلْبِهِ، وَلَمْ يَجِدْ الانْحِرَافُ وَالشُّذُوذُ طَرِيْقَهُ إِلَىٰ نَفْسِهِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-:

(وَمِنْ أَعْظَمِ الأَشْيَاءِ ضَرَرًا عَلَىٰ العَبْدِ بِطَالَتِهِ وَفَرَاغِهِ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ لا تَقْعُدُ فَارِغَةً، بَلْ إِنْ لَمْ يَشْغَلْهَا بِمَا يَنْفَعُهَا شَغَلَتْهُ بِمَا يَضُرُّهُ وَلابُدَّ)[٢].

٨ - البُعْدُ عَنْ المُثِيْرَاتِ، وَمَا يُذَكِّرُ بِالمَعْصِيَةِ:

البُعْدَ عَنْ دَوَاعِي المَعْصِيَةِ وَإِثَارَةِ الشَّهْوَةِ كَالأَفْلامِ الخَلِيْعَةِ، وَالأَغَانِي المَاجِنَةِ، وَالكُتُبِ السَّيِّئَةِ، وَالمَجَلاتِ السَّاقِطَةِ، وَكُلُّ مَا يُذَكِّرُهُ بِالمَعْصِيَةِ وَيَدْعُوهُ إِلَيْهَا مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ زَوَالِهَا.

وَمِنَ البُعْدِ عَنِ المُثِيْرَاتِ البُعْدُ عَنِ الفِتَنِ، فَالبُعْدُ عَنِ الفِتْنَةِ طَرِيْقٌ إِلَىٰ السَّلامَةِ.

(١) «طَرِيْقُ الهِجْرَتَيْنِ» (٢٩٧).
(٢) «المَرْجِعُ السَّابِقُ» (٢٩٨).

قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ ـ رَحِمَهُ اللّهُ ـ:

(مَنْ قَارَبَ الفِتْنَةَ بَعُدَتْ عَنْهُ السَّلاَمَةَ، وَمَنِ ادَّعَىٰ الصَّبْرَ وُكِلَ إِلَىٰ نَفْسِه، وَرُبَّ نَظْرَةٍ لَمْ تُنَاظَرْ (١)، وأَحَقُّ الأَشْيَاءِ بِالضَّبْطِ اللِّسَانُ وَالعَيْنُ؛ فَإِيَّاكَ أَنْ تَغْتَرَّ بِعَزْمِكَ عَلَىٰ تَرْكِ الهَوىٰ مَعَ مُقَارَبَةِ الفِتْنَةِ، فَإِنَّ الهَوىٰ مُكَايِدُ، وَكَمْ مِنْ شُجَاعٍ فِي الحَرْبِ اغْتِلَ، فَأَتَاهُ مَا لَمْ يَحْتَسِبْ.

فَتَبَصَّرْ ولاَ تَشَمْ كُلَّ بَرْقٍ
رُبَّ بَرْقٍ فِيْهِ صَوَاعِقُ حَيْنِ (١)
وَاغْضُضْ الطَّرْفِ تَسْتَرِحْ مِنْ غَرَامٍ
تَكْتَسِي فِيْهِ ثَوْبَ ذُلٍّ وَشَيْنِ
فَبَلاءُ الْفَتَىٰ مُوَافَقَةُ النَّفْـ
ـسِ وَبَدْءُ الْهَوَىٰ طُمُوْحُ الْعَيْنِ (٢)

وَمِنَ المُثِيْرَاتِ فُضُولُ الطَّعَامِ، وَالمَنَامِ، وَمُخَالَطَةِ الأَنَامِ؛ فَإِنَّ قُوَّةَ المَعَاصِي إِنَّمَا تَنْشَأُ مِنْ هَذِهِ الفَضَلاتِ؛ فَإِنَّهَا تُطْلَبُ مَصْرَفًا، فَيَضِيْقُ عَلَيْهَا المُبَاحُ، فَتَتَعَدَّاهُ إِلَىٰ الحَرَامِ) (٤).

(١) لَمْ تُنَاظَرْ: أَيْ لَمْ تُمْهَلْ.
(٢) «حَيْن: أَيْ هَلاكٌ».
(٣) «صَيْدُ الخَاطِرِ» (٣٥٠).
(٤) «طَرِيْقُ الهِجْرَتَيْنِ» (ص ٤٥٤).

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ ـ رَحِمَهُ اللّهُ ـ:

لاْ تَلُمْ مَـنْ عَـرَّضَ النَّفْسَ لِـمَاْ
لَيْسَ يَـرْضَىْ غَـيْرُهُ عِنْدَ الْـمِحَنِ
لاْ تُـقَـرَّبْ عَـرَفَـجَـاً مِـنْ لَهَـبٍ
وَمَـتَـىْ قَـرَّبْـتَـهُ قَـاْمَـتْ دُخَــنِ[(١)]

وَقَالَ ـ رَحِمَهُ اللّهُ ـ:

لاْ تَـتْـبِـعِ الـنَّـفْـسَ الْهَــوَىٰ
وَدَعِ الــتَّــعَــرُّضَ لِـلْـمِـحَـن
إِبْــلِــيْــسُ حَــيٌّ لَمْ يَـمُـتْ
وَالْــعَــيْنُ بَــاْبٌ لِـلْـفِـتَـنْ[(٢)]

٩ - غَضُّ البَصَرِ:

العَيْنُ مِرآةُ القَلْبِ، وَاطْلاقُ البَصَرِ يُورِّثُ المَعَاطِبُ، كَمَا أَنَّ غَضَّ البَصَرِ يُورِّثُ الرَّاحَةَ، فَإِذا غَضَّ العَبْدُ بَصَرَهُ غَضَّ القَلْبُ شَهْوَتَهُ وَإِرَادَتَهُ، وَإِذَا أَطْلَقَ بَصَرَهُ أَطْلَقَ القَلْبُ شَهْوَتَهُ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- بِغَضِّ البَصَرِ، وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ يَؤُولُ إِلىٰ تَزْكِيَةِ النَّفْسِ وَصَلاحِهَا.

---

(١) «طَوْقُ الحَمَامَةِ» (ص ١٢٨).
(٢) «المَرْجِعُ السَّابِقُ» (ص ١٢٧).

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النُّورُ:٣٠].

قَالَ شَيْخُ الإِسْلامِ ابْنُ تَيْمِيَةَ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

(فَجَعَلَ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- غَضَّ البَصَرِ وَحِفْظَ الفَرْجِ هُوَ أَقْوَىٰ تَزْكِيَةٍ لِلنُّفُوسِ، وَزَكَاةُ النُّفُوسِ تَتَضَمَّنُ زَوَالَ جَمِيعِ الشُّرُورِ مِنَ الفَوَاحِشِ، وَالظُّلْمِ، وَالشِّرْكِ، وَالكَذِبِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ) [(١)].

وَالحَدِيْثُ عَنْ غَضِّ البَصَرِ ذُوْ شُجُونٍ [(٢)] ، لَكِنْ يَكْفِي مِنَ القَادَةِ مَا أَحَاطَ بِالعُنُقِ.

١٠ - مُصَاحَبَةُ الأَخْيَارِ :

الصَّاحِبُ الصَّالِحُ يُذَكِّرُكَ باللهِ إِذَا نَسَيْتُ،وَيُعَلِّمُكَ إِذَا جَهِلْت،وَيَحُثُّكَ عَلَىٰ البُعْدِ عَنِ الفِتْنِ وَتَجْدِيْدِ التَّوْبَةِ، وَيَأْخُذْ بِيَدِكَ إِلَىٰ اللهِ وَيُحِبُّ لَكَ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ مِنَ الخَيْرِ.

صَحِبْتُكُمْ فَـازْدَدْتُ نُـوْرَاً وَبَهْجَة
وَمَنْ يَصْحَبِ الطَّيِّبَ الْـمُعَطَّرِ يَعْبَقُ

(١) «العُبُودِيَّةُ» (ص١٠٠ - ١٠١) .
(٢) انْظُرْ: فِتْنَةُ النَّظَرِ ، لِلكَاتِبِ ـ حَفَظَهُ اللهُ ـ .

١١ - مُجَانَبَةُ الأَشْرَارِ:

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبِ القُرْطُبِي ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

(التَّوْبَةُ يَجْمَعُهَا أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ: الاسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ، وَالإقْلاعُ بِالأَبْدَانِ، وَإِضْمَارُ تَرْكِ العَوْدِ بِالجَنَانِ، وَمُهَاجَرةُ سَيْئِ الإخْوَانِ) [١].

كَلِمَةٌ تُكْتَبُ بِمَاءِ الذَّهَبِ لِمَنْ تَأَمَّلَهَا؛ فَإِنَّ رُفْقَةَ السُّوءِ تُحَسِّنُ القَبِيْحَ، وَتُزَيِّنُ المَعْصِيَةَ، وَتُذَكِّرُ بِطُولِ الأَمَلِ، وَتَسْرِدَ آيَاتٍ وَأَحَادِيْثُ الرَّجَاءِ سَرْدًا، فَإِذَا لَمْ تَنْفَعُ الفِكْرَةُ وَتَنْجَحُ الحِيْلَةُ فَعِنْدَهُمْ أَلْفَ وَسِيْلَةٍ، وَإِبْلِيْسُ وَجُنُودُهُ يَمُدُّونَهُمْ بِالوَسَائِلِ غَيْرُ مُقَصِّرِيْنَ؛ لأَنَّهُمْ مَفَاتِيْحُ لِلْغُوَايَةِ؛ فَكُنْ مِنْهُمْ عَلَىٰ حَذَرٍ.

فَأَشَدُّ مَاْ يَلْقَىْ الْفَتَىْ مِنْ دَهْـرِهِ
فَقْدُ الْـكِـرَاْمِ وَصُحْبَةُ اللُّؤْمَاْءِ

١٢ - النَّظَرُ فِي العَوَاقِبِ:

النَّظَرُ فِى العَوَاقِبِ يُوقِفُ الإنْسَانَ عَلَىٰ حَقَائِقِ الأَشْيَاءِ، فَيَرَىٰ الحَقَائِقَ كَمَا هِيَ وَيَقْصُرُ عَنِ الهَوَىٰ خَشْيَةَ مَا يَؤُولُ إِلَيْهِ مِنْ سُوءِ العَاقِبَةِ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَيَعْلَمُ أَنَّهُ مَا أُتِيَ إِلا مِنْ قِلَّةِ التَّلَمّحِ لِلْعَوَاقِبِ.

---

(١) مَدَارِجُ السَّالِكِيْنَ « (١/ ٣١٠) .

قَالَ ابْنُ الجَوْزِيِّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

(لَوْ مَيَّزَ العَاقِلُ بَيْنَ قَضَاء وَطَرِه لـحْظَةً، وَانْقِضَاء بَاقِي العُمْر بالحَسْرَة عَلَىٰ قَضَاءَ ذَلكَ الوَطَر، لَمَا قَرُبَ منْهُ، وَلَوْ أُعْطِيَ الدُّنْيَا، غَيْرُ أَنَّ سَكْرَةَ الهَوَىٰ تَحول بَيْنَ الفِكْرِ وَذَلِك) [١].

وَقَالَ: (تَذَكَّرْتُ فِي أَسْبَاب دُخُول جَهَنَّمَ فَإِذَا هُوَ المَعَاصِي، فَنَظَرْتُ فِي المَعَاصِي فَإذا هِيَ حَاصِلَةٌ فِي طَلَب اللَّذَّات، فَإِذَا هِيَ خَدْعًا لَيْسَتْ بشَيْء، وَفِي ضِمْنَهَا مِنَ الأَكْدَار مَا يُصيِّرُهَا نَغْصًا، فتَخْرُجُ عَنْ كَوْنهَا لَذَّات؛ فَكَيْفَ يَتَّبِعُ العَاقِلُ نَفْسَهُ، وَيَرْضَىٰ بِجَهَنَّم لأَجْلِ هَذِهِ الأَكْدَارِ ؟) [٢].

وقَالَ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

(قَدْ جَاءَ فِي الأَثرِ: اللهُمَّ أَرِنَا الأَشْيَاء كَمَا هِي، وَهَذَا كَلامٌ حَسَنٌ غَايَةً، وَأَكْثَرُ النَّاس لا يَرَوْنَ الأَشْيَاءَ بعَيْنِهَا؛ فَإِنَّهُمْ يَرَوْنَ الفَانِي كَأَنَّهُ بَاق، وَلا يَكَادُونَ يَتخَايَلُونَ زَوَالِ مَا هُمْ فِيْهِ ـ وَإِنْ عَلمُوا ذَلِكَ ـ إِلَّا أَنْ عَيْنَ الحُسْنِ مَشْغُولَةً بِالنَّظَرِ الحَاضِر، أَلا تَرَىٰ زَوَال اللَّذَّاتِ وَبَقَاءَ إِثْمهَا) [٣].

وَقَالَ : (إِنَّمَا فَضلُ العَقْلُ بتَأَمُّلِ العَوَاقِب؛ فَأَمَّا قَلِيْلُ العَقْلِ فَإِنَّهُ يَرَىٰ الحَالَ الحَاضِرَةِ، وَلا يُنْظَرُ إِلَىٰ عَاقِبَتِهَا؛ فَإِنَّ اللصَّ يَرىٰ أَخذَ المَال، وَيَنْسَىٰ مَا يَجْنِي مِنْ فَوَاتِ العَلْم، وَكَسْبِ المَالِ؛ فَإِذَا كَبُرَ فَسُئِلَ عَنْ عِلْمٍ لَمْ يَدْرِ،

(١) « صَيْدُ الخَاطِرِ » (ص ٣٥١) .

(٢) « المَرْجعُ السَّابِقُ » (ص ٦٨٤) .

(٣) « صَيْدُ الخَاطِرِ » (ص ٣٥١) .

وَإذَا احْتَاجَ سَأَلَ فَذُلَّ؛ فَقَدْ أَرْبَىٰ مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ التَّأَسْفِ عَلَىٰ لَذَّةِ البَطَالَةِ، ثُمَّ يَفُوْتُهُ ثَوَابَ الآخِرَةِ بِتَرْكِ العَمَلِ فِى الدُّنْيَا، وَكَذَلِكَ شَارِبُ الخَمْرِ يَلْتَذُّ تِلْكَ السَّاعَةِ، وَيَنْسَىٰ مَا يَجْنِي مِنَ الآفَاتِ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

وَكَذَلِكَ الزِّنَا؛ فَإِنَّ الإِنْسَانَ يَرَىٰ قَضَاءَ الشَّهْوَةِ، وَيَنْسَىٰ مَا يَجْنِي مَنَ فَضِيْحَةِ الدُّنْيَا وَالحَدِّ، وَرُبَّمَا كَانَ لِلْمَرْأَةِ زَوْجٌ، فَأَلْحَقَتْ الحَمْلَ مِنَ هَذَا بِهِ، وَتَسَلْسَلَ الأَمْرُ.

فَقِسْ عَلَىٰ هَذِه النَّبْذَةِ، وَانْتَبِه لِلْعَوَاقِبِ، وَلا تُؤْثِرُ لَذَّةً تُفَوِّتُ خَيْرًا كَثِيْرًا، وَصَابِرْ المَشَقَّةَ تُحَصِّلُ رِبْحًا وَافِرًا» (١).

وَقَالَ الحَسَنُ بْنُ مطير:

وَنَفْسَكَ أَكْـرِمْ عَـنْ أُمُـوْرٍ كَثِيْرَةٍ
فَـمَا لَـكَ نَفْسٌ بَعْدَهَا تَسْتَعِيْرُهَا
وَلا تَقْرَبِ الأَمْـرَ الْـحَرَامَ فَإِنَّمَا
حَـلاوَتُـهُ تَفْنَىٰ وَيَبْقَىٰ مَرِيْرُهَا

وَكَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ يَتَمَثَّل بِهَذَيْنِ البَيْتَيْنِ:

تَفْنَىٰ الـلَّـذَاذَةُ مِمَّـنْ نَـالَ صَفْوَتَهَا
مِنَ الْحَـرَامِ وَيَبْقَىْ الإِثْـمُ وَالْعَارُ

---

(٢) «صَيْدُ الخَاطِرِ» (ص ٣٨٧).

تَبْقَىٰ عَـوَاْقِـبُ سُـوْدٍ فِيْ مَغَبَّتِهَاْ
لاْ خَـيْـرَ فِيْ لَـذَّةٍ مِـنْ بَعْدِهَاْ النَّاْرُ

١٣ - النَّظَرُ فِي العَوَاقِبِ:

العَوَائِدُ هِيَ السُّكُونَ إِلَىٰ الدِّعَةِ وَالرَّاحَةِ، وَمَا أَلِفَهُ النَّاسُ وَاعْتَادُوْهُ، مِنَ الرُّسُومِ وَالأَوْضَاعِ، الَّتِي جَعَلُوهَا بِمَنْزِلَةِ الشَّرْعِ المُتَّبَعِ، بَلْ هِيَ عِنْدَهُمْ أَعْظَمُ مِنَ الشَّرْعِ؛ فَإِنَّهُمْ يُنْكِرُونَ عَلَىٰ مَنْ خَرَجَ عَنْهَا وَخَالَفَهَا مَا لاَ يُنْكِرُوْنَ عَلَىٰ مَنْ خَالَفَ صَرِيْحَ الشَّرْعِ.

وَالوُصُولُ إِلَىٰ المَطْلُوبِ مَوْقُوفٌ عَلَىٰ هَجْرِ العَوَائِدِ؛ لأَنَّهَا مِنْ أَعْظَمِ الحُجُبِ وَالمَوانِعِ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ النُّفُوذِ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ ـ ﷺ ـ .

١٤ - هَجْرُ العَلاَئِقِ:

العَلاَئِقُ مَا تَعَلَّقَ بِهِ القَلْبُ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا .

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ: (وَأَمَّا العَلائِقُ فَهِيَ كُلُّ مَا تَعَلَّقَ بِهِ القَلْبُ دُوْنَ اللهِ وَرَسُولِهِ مِنْ مَلاذِّ الدُّنْيَا وَشَهَوَاتِهَا وَرِيَاسَاتِهَا، وَصُحْبَةِ النَّاسِ، وَالتَّعَلُّقِ بِهِمْ.

وَلا سَبِيْلَ إِلَىٰ قَطْعِ هَذِهِ الأُمُورِ الثَّلاثَةِ وَرَفْضِهَا إِلَّا بِقُوَّةِ التَّعَلُّقِ بِالمَطْلَبِ الأَعْلَىٰ، وَإِلاَّ فَقَطْعُهَا بِدُونَ تَعَلُّقِهِ بِمَطْلُوبِهِ مُمْتَنِعٌ؛ فَإِنَّ النَّفْسَ لا تَتْرُكُ مَأْلُوفَهَا وَمَحْبُوبَهَا إِلا لِمَحْبُوبٍ هُوَ أَحَبُّ إِلَيْهَا مِنْهُ، وَآثَرَ عِنْدَهَا مِنْهُ.

وَكُلَّمَا قَوِيَ تَعَلُّقُهُ بِمَطْلُوبِهِ ضَعُفَ تَعَلُّقه بِغَيْرِه، وَكَذَا بِالعَكْس، وَالتَّعَلُّقُ بِالمَطْلُوبِ هُوَ شِدَّةُ الرَّغْبَةِ فِيْهِ، وَذَلِكَ عَلَىٰ قَدْرِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ، وَشَرَفِهِ، وَفَضْلِهِ عَلَىٰ مَا سِوَاهُ) [١].

١٥ - اصْطِلاحُ الخَوَاطِرِ وَالأَفْكَارِ:

الخَوَاطِرُ وَالأَفْكَارُ هِيَ المُنْطَلَقُ الَّتِي تَنْطَلِقُ مِنْهَا أَعْمَالُ ابْنُ آدَمَ؛ فَإِنْ كَانَتْ فِي الخَيْرِ فَقَدْ أَوْجَدَ لِنَفْسِهِ مَنْبَتاً حَسَنًا وَأَرْضِيَّةً صَالِحَةً، وَإِنْ كَانَتْ فِي المَعَاصِي وَالذُّنُوبِ فَهُوَ كَالشَّاةِ الَّتِي تَبْحَثُ عَنْ حَتْفِهَا بِظُلْفِهَا.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

«مَبْدَأُ كُلِّ عِلْمٍ نَظَرِيٍّ وَعَمَلٍ اخْتِيَارِيٍّ هُوَ الخَوَاطِرُ وَالأَفْكَارُ؛ فَإِنَّهَا تُوجِبُ التَّصَوُّرَاتِ، وَالتَّصَوُّرَاتُ تَدْعُو إِلَىٰ الإِرَادَاتِ، وَالإِرَادَاتُ تَقْتَضِي وُقُوعَ الفِعْلِ،وَكَثْرَةُ تِكْرَارِ تُعْطِي العَادَاةَ؛فَصَلاحُ هَذِهِ المَرَاتِبِ الخَوَاطِرِ وَالأَفْكَارِ، وَفَسَادُهَا بِفَسَادِهَا؛ فَصَلاحُ الخَوَاطِرِ بِأَنْ تَكُونَ مُرَاقِبَةٌ لِوَلِيِّهَا وَلَهِهَا، صَاعِدَةً إِلَيْهِ، دَائِرَةً عَلَىٰ مَرْضَاتِهِ وَمَحَابِّهِ؛ فَإِنَّهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ بِهِ كُلُّ صَلاحٍ، وَمِنْ عِنْدِهِ كُلِّ هُدَىٰ، وَمِنْ تَوْفِيْقِهِ كُلِّ رُشْدٍ،وَمِنْ تَوَلِّيْهِ لِعَبْدِهِ كُلِّ حِفْظٍ، وَمِنْ تَوَلِّيْهِ وَإِعْرَاضِهِ عَنْهُ كُلِّ ضَلاٍ وَشَقَاءٍ»[٢].

وَقَالَ: (وَاْعَلمْ أَنَّ الخَطَرَاتِ وَالوَسَاوِسَ تُؤَدِّي مُتَعَلِّقَاتُهَا إِلَىٰ الفِكْرِ، فَيَأْخُذْهَا الفِكْرُ، فَيُؤَدِّيهَا إِلَىٰ التَّذَكُّرِ، فَيَأْخُذُهَا التَّذَكُّرِ فَيُؤَدِّيهَا إِلَىٰ الإِرَادَةِ،

---

(١) « الفَوَائِدُ » (ص ٢٢٥) .
(٢) « الفَوَائِدُ » (ص ٢٤٩) .

فَتَأْخُذُهَا الإِرَادَةُ فَتُؤَدِّهَا إِلىٰ الجَوَارِحِ وَالعَمَلِ، فَتَسْتَحْكِمُ فَتَصِيْرُ عَادَةً؛ فَرَدُّهَا مِنْ مَبَادِئِهَا أَسْهَلُ مِنْ قَطْعِهَا بَعْدَ قُوَّتِهَا وَتَمَامِهَا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَمْ يُعْطَ الإِنْسَانُ إِمَاتَةَ الخَوَاطِرِ، وَلاَ القُوَّةَ عَلىٰ قَطْعِهَا؛ فَإِنَّهَا تَهْجُمُ عَلَيْهِ هُجُومَ النَّفَسِ، إِلَّا أَنَّ قُوَّةَ الإِيمَانِ وَالعَقْلِ تُعِيْنُهُ عَلىٰ قَبُولِ أَحْسَنِهَا وَرِضَاهُ بِهِ، وَمُسَاكَنَتِهِ لَهُ، وَعَلىٰ دَفْعِ أَقْبَحِهَا، وَكَرَاهَتِهِ لَهُ، وَأَنْفَتِهِ مِنْهُ) [١].

إِلىٰ أَنْ قَالَ ـ رَحِمَهُ اللّٰهُ ـ:

(وَقَدْ خَلَقَ اللّٰهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ النَّفْسَ شَبِيْهَةً بِالرَّحَىٰ الدَّائِرَةِ الَّتِي لا تَسْكُنْ، وَلابُدَّ لَهَا مِنْ شَيْءٍ تَطْحَنُهُ، فَإِنْ وُضِعَ فِيْهَا حَبٌّ طَحَنَتْهُ، وَإِنْ وُضِعَ فِيْهَا تُرَابٌ أَوْ حَصَىٰ طَحَنَتْهُ، فَالأَفْكَارُ وَالخَوَاطِرُ الَّتِي تَجُولُ فِي النَّفْسِ هِيَ بِمَنْزِلَةِ الحَبِّ الَّذِي يُوضَعُ فِي الرَّحَىٰ، وَلا تَبْقَىٰ تِلْكَ الرَّحَىٰ مُعَطَّلَةً قَطْ، بَلْ لابُدَّ لَهَا مِنْ شَيْءٍ يُوضَعُ فِيْهَا، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ تَطْحَنُ رَحَاهُ حَبًّا يُخْرِجُ دَقِيْقًا يَنْفَعُ بِهِ نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَأَكْثَرُهُمْ يَطْحَنُ رَمْلاً وَحَصَىٰ وَتِبْنًا وَنَحْوَ ذَلِكَ؛ فَإِذَا جَاءَ وَقْتُ العَجْنِ وَالخُبْزِ تَبَيَّنَ لَهُ حَقِيْقَةَ طَحْنِهِ) [٢].

وَقَالَ ـ رَحِمَهُ اللّٰهُ ـ:

(فَإِذَا دَفَعْتَ الخَاطِرَ الوَارِدَ عَلَيْكَ انْدَفَعَ عَنْكَ مَا بَعْدَهُ وَإِنْ قَبِلْتَهُ صَارَ فِكْرًا جَوَّالاً، فَاسْتَخْدِمْ الإِرَادَةَ، فَتَسَاعَدَتْ هِيَ وَالفِكْرُ عَلىٰ اسْتِخْدَامِ

(١) « الفَوَائِدُ » (ص ٢٥٠).
(٢) « الفَوَائِدُ » (ص ٢٥٠).

الجَوَارِحِ، فَإِنْ تَعَذَّرَ اسْتِخْدَامُهَا رَجَعَا إِلَىٰ القَلْبِ بِالتَّمَنِّي وَالشَّهْوَةِ وَتُوَجُّهِهِ إِلَىٰ جِهَةِ المُرَادِ.

وَمِنَ المَعْلُومِ أَنَّ إِصْلاحَ الخَوَاطِرِ أَسْهَلُ مِنْ إِصْلاحِ الأَفْكَارِ، وَإِصْلاحُ الأَفْكَارِ أَسْهَلُ مِنْ إِصْلاحِ الإِرَادَاتِ، وَإِصْلاحُ الإِرَادَاتِ أَسْهَلُ مِنْ تَدَارُكِ فَسَادِ العَمَلِ، وَتَدَارُكُهُ أَسْهَلُ مِنْ قَطْعِ العَوَائِدِ.

فَانْفَعُ الدَّوَاءَ أَنْ تَشْغَلْ بِالفِكْرِ فِيمَا يُعْنِيكَ دُونَ مَا لا يُعْنِيكَ؛ فَالفِكْرُ فِيمَا لا يَعْنِي بَابُ كُلِّ شَرٍّ، وَمَنْ فَكَّرَ فِيمَا لا يُعْنِيهِ فَاتَهُ مَا يُعْنِيهِ، وَاشْتَغَلَ عَنْ أَنْفَعِ الأَشْيَاءِ لَهُ بِمَا لا مَنْفَعَةَ لَهُ فِيهِ) (١).

إِلَىٰ أَنْ قَالَ: (وَإِيَّاكَ أَنْ تُمَكِّنَ الشَّيْطَانَ مِنْ بَيْتِ أَفْكَارِكَ وَإِرَادَاتِكَ؛ فَإِنَّهُ يُفْسِدُهَا عَلَيْكَ فَسَادًا يَصْعُبُ تَدَارُكُهُ، وَيُلْقِي إِلَيْكَ أَنْوَاعَ الوَسَاوِسِ وَالأَفْكَارِ المُضِرَّةِ، وَيَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الفِكْرِ فِيمَا يَنْفَعُكَ وَأَنْتَ الَّذِي أَعَنْتَهُ عَلَىٰ نَفْسِكَ بِتَمْكِينِهِ مِنْ قَلْبِكَ وَخَوَاطِرِكَ، فَمَلَكَهَا عَلَيْكَ) (٢).

١٦ - اسْتِحْضَارُ فَوَائِدِ تَرْكِ المَعَاصِي :

يَاللهِ كَمْ هِيَ فَوَائِدُ تَرْكِ المَعَاصِي؟، وَكَمْ هِيَ المَسَارُّ الَّتِي لا يُدْرِكُهَا إِلا الوَاحِدُ بَعْدَ الوَاحِدُ، وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ بَعْضًا مِنْ تِلْكَ العَوَائِدِ فِي كِتَابِهِ الفَوَائِدِ.

(٢) « الفَوَائِدُ » (ص ٢٥٠ ــ ٢٥١).
(١) « الفَوَائِدُ » (ص ٢٥١).

فَقَالَ - رَحِمَهُ اللهُ -:

(سُبْحَانَ اللهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ ! لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي تَرْكِ المَعَاصِي إِلَّا إِقَامَةَ المُرُوءَةِ، وَصَوْنِ العِرْضِ، وَحِفْظِ الجَاهِ، وَصِيَانَةِ المَالِ الَّذِي جَعَلَهُ اللهُ قَوَامًا لِمَصَالِحِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَحَبَّةِ الخَلْقِ، وَجَوَازِ القَوْلِ بَيْنَهُمْ، وَصَلاحِ المَعَاشِ، وَرَاحَةِ البَدَنِ،وَقُوَّةِ القَلْبِ، وَطِيْبِ النَّفْسِ، وَنَعِيْمِ القَلْبِ، وَانْشِرَاحِ الصُّدُورِ، وَالأَمْنِ مِنْ مَخَاوِفِ الفُسَّاقِ وَالفُجَّارِ،وَقِلَّةِ الهَمِّ وَالغَمِّ وَالحُزْنِ، وَعِزِّ النَّفْسِ عَنْ احْتِمَالِ الذُّلِّ، وَصَوْنِ نُورِ القَلْبِ أَنْ تُطْفِئَهُ ظُلْمَةُ المَعْصِيَةِ، وَحُصُولِ المَخْرِجِ لَهُ مِمَّا ضَاقَ عَلَىٰ الفُسَّاقِ والفُجَّارِ، وَتَيْسرِ الرِّزْقِ عَلَيْهِ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ، وَتَيْسِيرِ مَا عُسرَ عَلَىٰ أَرْبَابِ الفُسُوقِ وَالمَعَاصِى، وَتَسْهِيْلِ الطَّاعَةِ عَلَيْهِ، وَتَيْسِيرِ العِلْمِ، والثَّنَاءِ الحَسَنِ فِي النَّاسِ، وَكَثْرَةِ الدُّعَاءِ لَهُ، وَالحَلاوَةِ الَّتِي يَكْتَسِبُهَا وَجْهُهُ،وَالمَهَابَةِ الَّتِي تُلْقَيظ لَهُ فِي قُلُوبِ النَّاسِ، وَانْتِصَارِهِ وَحَمِيَّتِهِمْ لَهُ، إِذَا أُوذِيَ أَوْ ظُلِمَ، وَذَبِّهِمْ عَنْ عِرْضِهِ إِذَا اغْتَابَهُ مُغْتَابٌ، وَسُرْعَةِ إِجَابَةِ دُعَائِهِ، وَزَوَالِ الوَحْشَةِ الَّتِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ، وَقُرْبِ المَلائِكَةِ مِنْهُ، وَبُعْدِ شَيَاطِينِ الإِنْسِ وَالجِنِّ مِنْهُ، وَتَنَافُسِ النَّاسِ عَلَىٰ خِدْمَتِهِ وَقَضَاءِ حَوَائِجِهِ، وَخِطْبَتِهِمْ لِمَوَدَّتِهِ وَصُحْبَتِهِ، وَعَدمِ خَوْفِهِ مِنَ المَوْتِ، بَلْ يَفْرَحُ بِهِ لِقُدُمِهِ عَلَىٰ رَبِّهِ وَلِقَائِهِ لَهُ، وَمَصِيْرِهِ إِلَيْهِ، وَصِغَرِ الدُّنْيَا فِي قَلْبِهِ، وَكِبَرِ الآخِرَةِ عِنْدَهُ، وَحِرْصِهِ عَلَىٰ المُلْكِ الكَبِيْرِ، وَالفَوْزِ العَظِيْمِ فِيْهَا، وَذَوْقِ حَلاوَةِ الطَّاعَةِ، وَوَجْدِ حَلاوَةِ الإِيمَانِ، وَدُعَاءِ حَمَلَةِ العَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ

المَلائِكَةِ لَهُ، وَفَرَحِ الكَاتِبِيْنَ بِهِ، وَدُعَاؤُهُمْ لَهُ كُلَّ وَقْتٍ، وَالزِّيَادَةِ فِي عَقْلِهِ وَفَهْمِهِ وإيْمَانِهِ وَمَعْرِفَتِهِ، وَحُصُولِ مَحَبَّةِ اللهِ لَهُ، وَإِقْبَالُهُ عَلَيْهِ، وَفَرَحِهِ بِتَوْبَتِهِ، وَهَكَذَا يُجَازِيْهِ بِفَرَحٍ وَسُرُورٍ؛ لا نِسْبَةَ لَهُ إلَىٰ فَرَحِهِ وَسُرُورِهِ بِالمَعْصِيَةِ بِوَجْهٍ مِنَ الوُجُوهِ.

فَهَذَا بَعْضُ آثَارِ تَرْكِ المَعَاصِي فِي الدُّنْيَا فَإِذَا مَاتَ تَلَقَّتْهُ المَلائِكَةُ بِالبُشْرَىٰ مِنْ رَبِّهِ بِالجَنَّةِ، وَبِأَنَّهُ لا خَوْفٌ عَلَيْهِ وَلا حَزَنٌ، وَيَنْتَقِلُ مِنْ سِجْنِ الدُّنْيضا وَضِيْقِهَا إلَىٰ رَوْضَةٍ مِنْ رِيَاضِ الجَنَّةِ، يَنْعَمُ فِيْهَا إلَىٰ يَوْمِ القِيَامَةِ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ كَانَ النَّاسُ فِي الحَرِّ وَالعَرَقِ وَهُوَ فِي ظِلِّ العَرْشِ، فَإِذَا انْصَرَفُوا مِنْ بَيْنِ يَدَي اللهِ أُخِذَ بِهِ ذَاتَ اليَمِيْنِ مَعَ أَوْلِيَائِهِ المُتَّقِيْنَ وَحِزْبِهِ المُفْلِحِيْنَ، قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- : ﴿ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤﴾ ﴾ [الجُمُعَةُ:٤] (١).

١٧-اسْتِحْضَارُ أَنَّ الصَّبْرَ عَنِ الشَّهْوَةِ أَسْهَلُ مِنَ الصَّبْرِ عَلَىٰ مَا تُوجِبُهُ الشَّهْوَةِ:

الشَّهْوَةُ إمَّا أَنْ تُوجِبُ أَلَماً وَعُقُوبَةً، وَإِمَّا أَنْ تَقْطَعَ لَذَّةً أَكْمَلَ مِنْهَا، وَإِمّا أَنْ تُضَيِّعُ وَقْتًا إضَاعَتُهُ حَسْرَةً وَنَدَامَةً، وَإِمَّا أَنْ تُثْلِمُ عِرْضًا تُوفِيرُهُ أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ مِنْ ثَلْمِهِ، وَإِمَّا أَنْ تُذْهِبَ مَالاً بَقَاؤُهُ خَيْرٌ لَهُ مِنْ ذَهَابِهِ، وَإِمَّا أَنْ تَضَعْ قَدْرًا وَجَاهاً قِيَامُهُ خَيْرٌ مِنْ وَضْعِهِ، وَإِمَّا أَنْ تُسْلِبُ نِعْمَةً بَقَاؤُهَا أَلَذُّ وَأَطْيَبُ

(١) « الفَوَائِدُ » (ص ٢٢١ – ٢٢٢).

مِنْ قَضَاءِ الشَّهْوَةِ، وَإِمَّا أَنْ تُطَرِّقَ لَوْ ضُيِّعَ إِلَيْكَ طَرِيْقًا لَمْ يَكُنْ يَجِدُهَا قَبْلَ ذَلِكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجْلِبُ هَمًّا وَغَمًّا وَحَزَنًا وَخَوْفًا لا يُقَارِبُ لَذَّةَ الشَّهْوَةِ، وَإِمَّا أَنْ تُنْسِي عِلْمًا ذِكْرُهُ أَلَذُّ مِنْ نَيْلِ الشَّهْوَةِ، وأَمَّا أَنْ تُشْمِتَ عَدُوًّا وَتُحْزِنَ وَلِيًّا، وَإِمَّا أَنْ تَقْطَعَ الطَّرِيْقَ عَلَىٰ نِعْمَةٍ مُقْبِلَةٍ، وَإِمَّا أَنْ تُحْدِثَ عَيْبًا يَبْقَىٰ صِفَةً لا تَزُولُ؛ فَإِنَّ الأَعْمَالَ تُورِّثُ الصِّفَاتِ وَالأَخْلاقَ (١).

١٨ - الدُّعَاءُ:

الدُّعَاءُ مِنْ أَعْظَمِ الأَسْبَابِ، وَأَنْفَعِ الأَدْوِيَةِ، وَهُوَ عَدُو البَلاءَ يُدَافِعُهُ، وَيُعَالِجُهُ وَيَمْنَعُ نُزُولَهُ، وَيَرْفَعُهُ، أَوْ يُخَفِّفُهُ إِذَا نَزَلَ، واللهُ أَمَرَنَا بِالدُّعَاءِ وَوَاعَدَ بِالإِجَابَةِ، قَالَ اللهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ–: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غَافِرُ: ٦٠].

وَمِنْ أَعْظَمِ مَا يُسْأَلُ وَيُدْعَىٰ بِهِ سُؤَالُ اللهِ التَّوْبَةُ؛ وَذَلِكَ بِأَنْ يَدْعُو الإِنْسَانُ رَبَّهُ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ مَهْمَا كَانَتْ حَالُهُ.

وَقَالَ ـ سُبْحَانَهُ ـ: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ ﴾ [البَقَرَةُ: ١٨٦].

وَلِهَذَا كَانَ مِنْ دُعَاءِ نَبِيِّ اللهِ إِبْرَاهِيْمَ وَابْنَهُ إِسْمَاعِيْلُ – عَلَيْهِمَا السَّلامُ– ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البَقَرَةُ: ١٢٨].

وَمِنْ دُعَاءِ نَبِيِّنَا ـ مُحَمَّدٌ ﷺ ـ: «رَبِّ اغْفِرْ لِي، تُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ

(١) انْظُر: «الفَوَائِدُ» (ص ٢٢١ – ٢٢٢).

الرَّحِيْمُ» (١).

وَمِنْ دُعَاءِ المُؤْمِنِيْنَ : ﴿ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾[آلُ عِمْرَان: ١٦] ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ الأَدْعِيَةِ الكَثِيْرَةِ الوَارِدَةِ عَلَىٰ هَذَا النَّحْوِ.

مَنْ أَرَادَ التَّوْبَةَ فَلْيَقْرَعَ بَابَ مَوْلاهُ، وَمَتَىٰ تَحِينُ أَوْقَاتَ الإِجَابَةِ يُوشِكُ أَنْ يُفْتَحَ لَهُ.

قَالَ ابْنُ الجَوْزِيُّ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

«أَيُّهَا المُذْنِبُ قِفْ بِالبَابِ إِذَا نَامَ النَّاسُ، وَأَبْسِطْ لِسَانَ الاعْتِذَارِ، وَنَكِّسْ الرَّأْسَ، وَامْدُدْ بَعْدَ السُّؤَالِ وَلا بَأْسَ، وَقُلْ: لَيْسَ عِنْدِي سُوَىٰ الفَقْرِ والإِفْلاسِ» (٢).

---

(١) «صَحِيْحٌ» رَوَاهُ أَحْمَد (٢/ ٢١) ، والتِّرمِذِي (٣٤٣٤)، وَأَبُو دَاودُ (١٥١٦) ، والنِّسَائِيُّ فِي الكُبْرَىٰ (١٠٢٩٢) ، والبُخَارِيُّ فِي «الأَدَبِ المُفْرَدِ» (٦٣٣) ، وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي الصَّحِيْحَةُ (٥٥٦) مِنْ حَدِيْثِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا .

(٢) «رُؤُوس القَوَارِير» ، (ص ١٥١) .

الفَصْلُ التَّاسِعُ

مِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ

لِلذُّنُوبِ أَثَرٌ عَظِيْمٌ وَخَطَرٌ جَسِيْمٌ عَلَىٰ الفَرْدِ وَالمُجْتَمَعِ إِنْ لَمْ تُدْفَعْ بِالتَّوْبَةِ المَاحِيَةِ لَهَا، فَمِنْ أَثَرِهَا مَا يَأْتِي:

١ - أَنَّهَا تَطْبَعُ عَلَىٰ قَلْبِ صَاحِبِهَا:

الذُّنُوبُ مَتَىٰ تَكَاثَرَتْ عَلَىٰ العَبْدِ فَإِنَّهَا تَطْبَعُ عَلَىٰ قَلْبِ صَاحِبِهَا؛ فَلا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلا يُنْكِرُ مُنْكَرًا.

قَالَ اللهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ–: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)﴾ [المُطَفِّفِيْنَ:١٤]. وَالرَّان هُوَ الذَّنْبُ بَعْدَ الذَّنْبِ.

فَفِي (مُسْنَدِ أَحْمَدِ) مِنْ حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَة –رَضِيَ اللهُ عَنْهُ– قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ –صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ–: **«إِنَّ المُؤْمِنُ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءَ، فَإِذَا تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّىٰ تَعْلُو قَلْبَهُ، فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَهُ ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٤)﴾»**[1].

(١) «صَحِيْحٌ» أَخْرَجَهُ أَحْمَد (٢/ ٢٩٧)، والتِّرمِذِيّ (٣٣٤)، وابْنُ مَاجَةْ (٤٢٤٤)، وَقَالَ الأَلْبَانِي فِي المِشْكَاةُ (٢٣٤٢) حَسَنٌ صَحِيْحٌ، وَقَالَ شَيْخُنَا الوَادَاعِي ـ رحِمَهُ اللهُ ـ فِي الصَحِيْحِ المُسْنَد (١٦٥٣) حَسَنٌ.

٢ - أَنَّهَا سَبَبٌ لِحِرمَانِ العِلْمِ:

مِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ حِرْمَانُ العِلْمِ؛لأَنَّ العِلْمَ نُورٌ والذُّنُوبِ تُطْفِئُ ذَلِكَ النُّور.

شَكَوْتُ إِلَىٰ وَكِيعٍ سُوْءَ حِفْظِيْ
فَأَرْشَدَنِيْ إِلَىٰ تَرْكِ الْمَعَاْصِيْ
وَقَاْلَ اعْلَمْ بِأَنَّ الْعِلْمَ نُوْرٌ
وَنُوْرُ اللهِ لاْ يُهْدَىٰ لِعَاْصِيْ

٣ - أَنَّهَا سَبَبٌ لاعْتِيَادِ الذُّنُوبِ:

أَنَّ الذُّنُوبَ سَبَبٌ لِلْمُعَاوَدَة، فَكُلُّ ذَنْب تجَرُّ إلىٰ أُخْتُهَا حَتَّىٰ تَأْلَفَهَا النَّفْسُ وَتُصْبَحُ لَهَا عَادضةً يَعِزُّ عَلَيْهَا مُفَارَقَتُهَا، كَمَا قِيلَ:

وَكَأْساً شُرِبْتُ عَلَىٰ لَذَّةٍ
وَأُخْرَىٰ تَدَاْوَيْتُ مِنْهَاْ بِهَاْ

وَقَدْ لا يَرْتَاحُ الشَّخْصَ المُعَاوِدُ، وَلا هَدَأَ لَهُ بَالٌ، وَلا يُقِرُّ لَهُ قَرَارٌ حَتَّىٰ يُجَاهِر بالذُّنُوبِ، وَتِلْكَ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانَ في الغُوَايَةَ، وَهُوَ أَنْ يُوصِلَ الشَّخْصَ إلىٰ طَرِيْقٍ لا يُرْجَىٰ مَعَهَا تَوْبَةٌ إنْ لَمْ يَتَدَارَكَهُ الله بِرَحْمَةٍ مِنْهُ.

فَفِي «الصَّحِيْحَيْنِ» منْ حَديْث أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ: سَمِعْت رَسُولَ اللهِ –صَلَّىٰ الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– يَقُولُ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافِىٰ إلا المُجَاهِرِيْن، وَإِنَّ**

مِنَ الإِجْهَارِ أَنْ يَعْمَلَ العَبْد باللَّيْلِ عَمَلاً، ثُمَّ يُصْبِحُ قَدْ سَتَرَهُ رَبُّهُ فَيَقُولُ: يَا فُلان! قَدْ عَمِلْتُ البَارِحَةُ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سَتَرِ اللهِ عَلَيْهِ)[(١)].

٤ - أَنَّهَا تُورِثُ الذُّلِ:

أَنَّ الذُّنُوبَ تُورِثَ الذُّلِ وَالهَوَانِ عَلَىٰ اللهِ أَولاً، ثُمَّ عَلَىٰ الخَلْقِ، كَمَا أَنَّ الطَّاعَةَ تُورِثُ العِزَةَ.

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ ﴾ [فَاطِرُ: ١٠].

قَالَ الحَسَنُ البِصْرِيّ -رَحِمَهُ اللّه:

(إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقطَقتْ بِهِمْ البغَالُ، وَهَمْلَجتْ بِهِمْ البَرَاذِينُ، إِنَّ ذُلَّ المَعْصِيَةِ لا يُفَارِقُ قُلُوبَهُم، أَبَىٰ اللهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَ مِنْ عَصَاهُ)[(٢)].

قَالَ عَبْدُ اللّهِ بْنُ المُبَارَك -رَحِمَهُ اللّه-:

رَأَيْتُ الذُّنُوْبَ تُمِيْتُ القُلُوْبَ
وَقَدْ يُوْرِثُ الذُّلَ إِدْمَانُهَا
وَتَرْكُ الذُّنُوْبِ حَيَاةُ القُلُوْب
وَخَيْرٌ لِنَفْسِكَ عِصْيَانُهَا

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٠٦٩) وَمُسْلِمٌ (٢٩٩٠) وَاللَّفْظُ لَهُ.
(٢) (الجَوَابُ الكَافِي) (ص ١٣٣).

وَهَــلْ أَفَسَدَ الدِّيْنَ إِلَّا الْـمُلُوْكُ
وَأَحْــبَــارُ سُــوْءٍ وَرُهْــبَــانُهَــا !

٥ - أَنَّهَا سَبَبٌ فِي ضَعْفِ الغَيْرَةِ :

الذُّنُوبُ مَتَّىٰ حَلَّتْ فِي قَلْبِ امرئ ارْتَحَلَتْ مِنْهُ الغِيْرَةُ عَلَىٰ أَهْلِهِ وَمَحَارِمِهِ والنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ، بَلْ تَرْحَلُ عَنْهُ الغَيْرَةُ عَلَىٰ دِيْنِهِ حَتَّىٰ يَصِيْرَ مِنْ جُنُودِ الشَّيْطَانِ وَأَعْوَانِهِ، يُحسِنُ الظُّلْمَ وَالفَوَاحِشَ لِغَيْرِهِ وَيُزَيِّنُهُ لَهُ وَيَدْعُوهُ إِلَيْهِ وَيَحُثُّهُ عَلَيْهِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

(وَمِنْ عُقُوبَةِ الذُّنُوبِ: أَنَّهَا تُطْفِئُ مِنَ القَلْبِ نَارَ الغَيْرَةِ الَّتِي هِيَ لِحَيَاتِهِ وَصَلاحِهِ كَالحَرَارَةِ الغَرِيْزِيَّةِ لِحَيَاةِ جَمِيْعِ البَدَنِ، فَالغَيْرَةُ حَرَارَتُهُ وَنَارُهُ الَّتِي تُخْرِجُ مَا فِيْهِ مِنَ الخَبْثِ وَالصِّفَاتِ المَذْمُومَةِ، كَمَا يُخْرِجُ الكِيْرُ خَبَثَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ والحَدِيْدِ، وَأَشْرَفُ النَّاسِ وَأَعْلاَهُمْ هِمَّةً أَشَدُّهُمْ غَيْرَةً عَلَىٰ نَفْسِهِ وَخَاصَّتِهِ وَعُمُومِ النَّاسِ، وَلِهَذَا كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَغْيَرَ الخَلْقِ عَلَىٰ الأُمَّةِ، وَاللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ أَشَدُّ غَيْرَةً مِنْهُ كَمَا ثَبَتَ فِي «الصَّحِيْحِ» عَنْهُ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أَنَّهُ قَالَ: «**أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟، لأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، واللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**» (١).

(١) (الدَّاءُ والدَّوَاءُ) (١٤٤).

٦- أَنَّهَا سَبَبٌ لِزَوَالِ النِّعَمِ:

الذُّنُوبُ سَبَبٌ لِزَوَالِ نِعَمِ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ وَحُلُولِ النِّقَمِ مِنَ المَصَائِبِ العَاجِلَةِ وَالآجِلَةِ.

قَالَ اللهُ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ-: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ٣٠ ﴾ [الشُّورَىٰ:٣٠].

قَالَ ابْنُ سَعْدِي -رَحِمَهُ اللهُ-:

(يُخْبِرُ تَعَالَىٰ أَنَّهُ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي أَبْدَانِهِم، وَأَمْوَالِهِمْ وَأَوْلادِهِم وَفِيمَا يُحِبُّونَ وَيَكُونُ عَزِيْزًا عَلَيْهِمْ إِلَّا بِسَبَبِ مَا قَدَّمَتْهُ أَيْدِيْهِمْ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَأَنَّ مَا يَعْفُو اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يَظْلِمُ العِبَادَ، وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ، قَالَ -تَعَالَىٰ- : ﴿ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ [فَاطِرُ:٤٥] [١].

فَزَوَالُ النِّعَمْ مَورَثَةٌ لِلْهَمِّ وَالغَمِّ، وَالهَمُّ والغَمُّ يَستَدْعِيَا أَمْرَاضًا قَدْ تَفْتِكُ بِالجَسَدِ وَلا يُسْتَدْفَعُ ذَلِكَ إِلَّا بِالتَّوْبَةِ النَّصُوْحِ والمُحَافَظَةِ عَلَىٰ النِّعَمِ بِشُكْرِهَا، وَمَنْ شَكَرَهَا تَرَكَ الذُّنُوبَ صِغَارَهَا وَكِبَارَهَا.

إِذَا كُنْتَ فِي نِعْمَةٍ فَارْعَهَا
فَإِنَّ الذُّنُوْبَ تُزِيْلُ النِّعَمْ

---

(١) (تَفْسِيْرُ ابْنُ السَّعْدِيّ) (ص٨٩٩).

وَحُطْهَا بِطَاعَةِ رَبِّ الْعِبَادْ
فَرَبُّ الْعِبَادْ سَرِيعُ النِّقَمْ

٧ - أَنَّهَا سَبَبٌ لِسُقُوطِ المَنْزِلَةِ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ خَلْقِهِ:

الذُّنُوبُ مَعَ قُبْحِ أَثَرِهَا سَبَبٌ لِسُقُوطِ المَنْزِلَةِ عِنْدَ اللهِ -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ- وَعِنْدَ خَلْقِهِ، فَلا يُذْكَرُ الْمُذْنِبُ بِمَا يُحِبُّ أَنْ يُذْكَرَ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

(وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا - أَيْ الذُّنُوبِ - سُقُوطِ الجَاهِ وَالمَنْزِلَةِ وَالكَرَامَةِ عِنْدَ اللهِ خَلْقِهِ، فَإِنَّ أَكْرَمَ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاهُمْ، وَأَقْرَبُهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَطْوَعُهُمْ لَهُ، وَعَلَىٰ قَدْرِ طَاعَةِ العَبْدِ لَهُ تَكُونُ مَنْزِلَتَهُ عِنْدَهُ، فَإِذَا عَصَاهُ وَخَالَفَ أَمْرَهُ سَقَطَ مِنْ عَيْنِهِ، فَأَسْقَطَهُ مِنْ قُلُوبِ عِبَادِهِ، وَإِذَا لَمْ يَبْقَ لَهُ جَاهٌ عِنْدَ الخَلْقِ وَهَانَ عَلَيْهِم عَامَلُوهُ عَلَىٰ حَسَبَ ذَلِكَ، فَعَاشَ بَيْنَهُمْ أَسْوأَ عَيْشٍ: خَامِلُ الذِّكْرِ، سَاقِطُ القَدْرِ، زَرِيَّ الحَالِ، لا حُرْمَةَ لَهُ، وَلا فَرَحٌ لَهُ، وَلا سُرُورٌ، فَإِنَّ خُمُولَ الذِّكْرِ وَسُقُوطَ القَدْرِ، والجَاهِ جَالِبُ كُلَّ غَمٍّ وَهَمٍّ وَحَزَنٍ، وَلا سُرُورَ مَعَهُ وَلا فَرَحَ، وَأَيْنَ هَذَا الأَلَمُ مِنْ لَذَّةِ المَعْصِيَةِ لَوْلا سُكْرُ الشَّهْوَةِ؟)[1].

٨ - أَنَّهَا سَبَبٌ فِي ضَعْفِ العَقْلِ:

الذُّنُوبُ سَبَبٌ فِي ضَعْفِ العَقْلِ وَلابُدَّ؛ لأَنَّ الطَّاعَةَ نُورُ القَلْبِ وَضِيَاؤُهُ، فَإِذَا أَظْلَمَ القَلْبُ بِالذُّنُوبِ فَبِأَي شَيْءٍ يَسْتَنِيرُ العَقْلِ.

(١) (الدَّاءُ والدَّوَاءُ) (١٤٤).

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ -رَحِمَهُ اللهُ-:

(وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا - أَيِ الذُّنُوبِ - أَنَّهَا تُؤَثِّرُ بِالخَاصَّةِ فِي نُقْصَانِ العَقْلِ؛ فَلا تَجِدُ عَاقِلَينِ أَحَدُهُمَا مُطِيعٌ للهِ وَالآخَرُ عَاصٍ، إِلاَّ وَعَقْلُ المُطِيعِ مِنْهُمَا أَوْفَرَ وَأَكْمَلُ، وَفِكْرُهُ أَصَحُّ، وَرَأْيُهُ أَسَدُّ، وَالصَّوَابُ قَرِينُهُ، وَلِهَذَا تَجِدُ خِطَابُ القُرآنِ إِنَّمَا هُوَ مَعَ أُولِي العُقُولِ وَالأَلْبَابِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البَقَرَةُ: ١٩٧].

وَقَوْلِهِ -تَعَالَىٰ-: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المَائِدَةُ: ١٠٠]، وَقَوْلِهِ - تَعَالَىٰ -: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [البَقَرَةُ: ٢٦٩]. وَنَظَائِرُ ذَلِكَ كَثِيرَةٌ)[١].

٩ - أَنَّهَا سَبَبٌ لِحُلُولِ العَذَابِ:

أَنَّ المَعَاصِي وَالذُّنُوبُ سَبَبٌ لِحُلُولِ العَذَابِ، وَالنَّاظِرُ إِلَىٰ مَا أَصَابَ الأُمَمِ السَّابِقَةِ مِنَ الخَسْفِ وَالغَرَقِ والهَلاكِ إِلَّا وَسَبَبُ ذَلِكَ الذُّنُوبِ، فَفِي مُسْتَدْرَكِ الحَاكِمُ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ - الله - أَوْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : قَالَتْ: (سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: «**إِذَا ظَهَرَتْ المَعَاصِي فِي أُمَّتِي عَمَّهُمْ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ**»، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَمَا فِيهِمْ يَوْمَئِذٍ أُنَاسٌ صَالِحُونَ ؟، قَالَ: «**بَلَىٰ**»، قُلْتَ: فَكَيْفَ يُصْنَعُ بِأُولَئِكَ ؟، قَالَ: «**يُصِيبُهُمْ مَا أَصَابَ النَّاسَ، ثُمَّ يَصِيرُونَ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ**

(١) (الدَّاءُ والدَّوَاءُ) (١٤٨).

مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ» [١].

١٠ - أَنَّهَا سَبَبٌ لِذَهَابِ الحَيَاءِ:

الذُّنُوب سَبَبٌ لِذَهَاب الحَيَاء،وَمَتَىٰ ذَهَبَ الحَيَاءُ عَنْ العَبْد ذَهَب عَنْهُ كُلُّ جَمِيْلٍ، فَفِي صَحِيْح البُخَارِيُّ مِنْ حَدِيْثِ أَبِي مَسْعُودٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ–صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسَ مِنْ كَلامِ النُّبُوةُ الأَوْلَىٰ: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**» [٢].

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللّهُ ـ:

(الذُّنُوب تُضعف الحَيَاءَ مِنَ العَبْدِ، حَتَّىٰ رُبَّمَا انْسَلَخَ مِنْهُ بالكُلِّيَّة، حَتَّىٰ أَنَّهُ رُبَّمَا لا يَتَأَثَّرُ بعلْم النَّاس بسُوءِ حَالِه، وَلا باطِّلاعِهِمْ عَلَيْهِ، بَلْ كَثِيْرٌ مِنْهُمْ يُخْبرُ عَنْ حَالِهِ وَقُبْح مَا يَفْعَلُ، وَالحَامِلُ لَهُ عَلَىٰ ذَلِكَ انْسِلاخِهِ مِنَ الحَيَاءِ، وَإِذَا وَصَلَ العَبْدُ إِلَىٰ هَذَا الحَالِ لَمْ يُبْقِ فِي صَلاحِهِ مَطْمَع.

وَإِذَا رَأَىٰ إِبْلِيْسُ طَلْعَةَ وَجْهِهِ
حَيًّا وَقَـالَ فَدَيْتُ مَنْ لا يَفْلَحُ [٣]

١١ - أَنَّهَا سَبَبٌ لِضَعْفِ إِرَادَةِ الخَيْرِ:

فالذُّنُوبُ سَبَبٌ لَضعفِ الرَّغْبَةِ فِي الخَيْر وَالازْدِيَـادِ مِنْهُ وَالحِرْصُ عَلَيْهِ،وَإِذَا عَزَمَ عَلَىٰ التَّوْبَةِ لا يَجِدُ بَصِيْصًا مِنْ نُورٍ يُنِيْرُ لَهُ الدَّرْبَ؛ فَيَعُود

(١) صَحِيْحٌ) أَخْرَجَهُ الحَاكِمْ (٤/ ٥٢٣) .
(٢) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦١٢٠) .
(٣) (الدَّاءُ والدَّوَاءُ) (ص ١٠٠ – ١٠١) .

أَدْرَاجَهُ وَقَدْ قَنعَ مِنَ الغَنِيْمَةِ بالإِيَابِ.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

(أَنَّهَا ـ أَيْ الذُّنُوبُ ـ تُضْعِفُ القَلْبَ عَنْ إرادَتِه فَتَقْوَى إِرَادَةُ المَعْصِيَةِ، وَتُضْعِفُ إرادَةُ التَّوْبَةَ شَيْئًا فَشَيْئًا، إِلَىٰ أَنْ تَنْسَلِخَ مِنْ قَلْبِه إِرَادَةُ التَّوْبَةِ بالكُلِّيَةِ، فَلَوْ مَاتَ نِصْفَهُ لَـمَا تَابَ إِلَىٰ اللهِ، يَأْتِي مِنْ الاسْتِغْفَارِ وَتَوْبَةِ الكَذَّابِيْنَ باللِّسَانِ بَشَيْءٍ كَثِيْرٍ،وَقَلْبُهُ مَعْقُودٌ بالمَعْصِيَةِ، مُصِرٌّ عَلَيْهَا،عَازِمٌ عَلَىٰ مُوَاقِعَتِهَا مَتَّىٰ أَمْكَنَهُ،وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الأَمْرَاضِ وَأَقْرَبِهَا إِلَىٰ الهَلاكِ)[١].

١٢ - أَنَّهَا سَبَبٌ للاضْطِّرَابِ وَالقَلَقِ النَّفْسِيِّ:

الذُّنُوبُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ القَلَقِ وَالاضْطِّرَابِ النَّفْسِي، فَالقَلْبُ أَسَاسُ الرَّاحَةِ والطَّمَأْنِينَةِ وَالانْشِرَاحِ وَالسَّعَةِ، فَإِذَا أَظْلَمَ بِفِعْلِ المَعَاصِي، حَلَّ فِيْهِ القَلَقُ وَالضِّيْقُ.

قَالَ اللهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ–: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طَهَ: ١٢٤].

وَالنَّفْسُ تَلَومُ صَاحِبُهَا وَتُحَرِّكُهُ نَحْوَ الطَّاعَةِ كَمَا قَالَ اللهُ –سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ–: ﴿ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ [القِيَامَةُ: ٢].

أَيْ أَنَّ نَفْسَ المُؤْمِنِ تَلُومُ صَاحِبَهَا فِي الدُّنْيَا عَلَىٰ مَا حَصَلَ مِنْهُ مِنْ تَفْرِيْطٍ

(١) « المَرْجِعُ السَّابِقُ » (ص ١٢٩).

أَوْ تَقْصِيرٍ فِي حَقٍّ مِنَ الحُقُوقِ غَفْلَةً [١]؛ فَتَشْعُرُ النَّفْسُ بِمَرَارَةِ الذَّنْبِ فَتَظْلُمُ الدُّنْيَا فِي عَيْنِي صَاحِبِهَا فَتَأْتِيهِ الأَعْرَاضُ النَّفْسِيَّةُ كَالضِّيقِ وَالضَّنْكِ وَالقَلَقِ وَالاضْطِرَابِ.

قَالَ عَفِيفُ طَبَّارَة:

(إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ مَا هِيَ إِلَّا أَمْرَاضُ الضَّمِيرِ تَحْدُثُ كَوَسِيلَةٍ لِلهُرُوبِ مِنْ تَعْذِيبِ النَّفْسِ أَوْ الذَّاتِ أَوْ تَأْنِيبِهَا) [٢].

وَقَالَ الدُّكْتُور مُحَمَّدُ عُثْمَان نَجَاتِي:

(إِنَّ الشُّعُورُ بِالذَّنْبِ يُسَبِّبُ لِلإِنْسَانِ الشُّعُورَ بِالنَّقْصِ وَالقَلَقِ مِمَّا يُؤَدِّي إِلَىٰ نُشُوءِ أَعْرَاضَ الأَمْرَاِ النَّفْسِيَّةِ) [٣].

وَقَالَ الدُّكْتُور عَبْدِ الرَّحْمَنِ العِيسَوي:

(الشُّعُورُ بِالذَّنْبِ مِنَ المَشَاعِرِ المُدَمِّرَةِ لِنَفْسِيَّةِ الإِنْسَانِ، وَكَثِيرٌ مِنَ الأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ الكَثِيرَةِ وَالانْتِشَارِ فِي آيَامِنَا هَذَا عَوْدُهَا إِلَىٰ شُعورِ الفَرْدِ الحَادَّ بِالذَّنْبِ، لِذَلِكَ لَمْ يَكُنْ غَرِيبًا أَنْ يَقَعَ الشُّعُورُ بِالذَّنْبِ ضِمْنَ أَعْرَاضِ كَثِيرَةٍ مِنَ الأَمْرَاضِ النَّفْسِيَّةِ وَالعَقْلِيَّةِ، فَمِنْ بَيْنَ أَعْرَاضِ مَرَضِ القَلَقِ يُوْجَدُ الشُّعُورُ بِالذَّنْبِ أَوْ المَيْلِ نَحْوَ لَوْمِ الذَّاتِ وَتَأْنِيبِهَا وَتَنِيفِهَا وَعِقَابِهَا، وَمِنْ بَيْنِ أَعْرَاضِ مَرَضِ الاكْتِئَابِ يُوْجَدُ ـ أَيْضًا ـ الشُّعُورُ بِالذَّنْبِ) [٤].

---

(١) انْظُرْ: (تَفْسِيرُ ابْنُ السَّعْدِيّ) (ص٨٥٩).
(٢) «الخَطَايَا فِي الإِسْلام» (ص ٢١).
(٣) «القُرآنُ وَعِلْمِ النَّفْسِ».
(٤) «التَّوْبَةُ وَصِحَّةُ المُسْلِمِ العَقْلِيَّةِ» مَجَلَّةُ كِلِّيَةِ المَلِكْ خَالِدِ العَسْكَرِيَّة، العَدَدِ السَّادِس (٧٠).

الفَصْلُ العَاشِرُ

الحَذَرُ مِنَ الاسْتِهَانَةِ بِالذُّنُوبِ

الاسْتِهَانَةُ بِالذُّنُوبِ، مَهْمَا صَغُرَتْ سَبَبٌ لِلْهَلاكِ، فَإِنَّ الاسْتِهَانَةَ بِالصَّغَائِرِ مِمَّا يُلْحِقُهَا بِالكَبَائِرِ لِمَا يُقْتَرَنُ بِهَا مِنْ قِلَّةِ الحَيَاءِ وَعَدَمِ المُبَالاةِ وَتَرْكِ الخَوْفِ مِنَ اللهِ.

فَفِي (مُسْنَدْ أَحْمَدَ) مِنْ حَدِيْثِ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ! كَقَوْمٍ نَزَلُوا فِي بَطْنِ وَادٍ فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّىٰ أَنْضَجُوا خَبْزَتَهُم، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، مَتَىٰ يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا؛ تُهْلِكُهُ**»[1].

وَفِي (سُنَنِ ابْنُ مَاجَةْ) مِنْ حَدِيْثِ عَائِشَةَ ـ لله ـ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- : «**يَا عَائِشَة، إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الأَعْمَالِ** (وَفِي لَفْظٍ: **الذُّنُوبِ**)؛ **فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللهِ طَالِبًا**»[2].

وَفِي (الصَّحِيْحَيْنِ) مِنْ حَدِيْثِ عَبْدِ اللهِ بْنُ عُمَر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ رَسُولَ

---

(١) « صَحِيْحٌ » أَخْرَجَهُ أَحْمَد (٥/ ٣٣١) ، وَالطَّبَرَانِي (٦/ ١٦٦) وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «الصَّحِيْحَةِ» (٣٨٩) .

(٢) « صَحِيحٌ » أَخْرَجَهُ أَحْمَد (٦/ ٧٠) وابْنُ حِبّضانٍ (٢٤٩٧) ، والدَّرَامِي (٢/ ٣٠٣) وَصَحَّحَهُ الأَلْبَانِي فِي «الصَّحِيْحَةِ» (٥١٣) .

اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: «**عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ، سَجَنَتْهَا حَتَّىٰ مَاتَتْ فَدَخَلَتْ النَّارَ، لا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلاَ هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**»، وَفِي (صَحِيْحِ البُخَارِيِّ) مِنْ حَدِيْثِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: «**إِنَّ الْمُؤمِنَ يَرَىٰ ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ تَقَعَ عَلَيْهِ، وَأَنَّ الفَاجِرَ يَرَىٰ ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَىٰ أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا**، قَالَ أَبُو شِهَابٍ: بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ» (١).

وَفِي (صَحِيْحِ البُخَارِيِّ) مِنْ حَدِيْثِ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالاً هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، وَإِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللهِ -صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مِنَ الْمُوبِقَاتِ» (٢).(٣).

وَرَوَىٰ أَبُو نَعِيْمٍ فِي «الحِلْيَةُ» بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُ قَالَ: «يَا صَاحِبَ الذَّنْبِ لاَ تَأْمَنْ سُوءَ عَاقِبَتِهِ، وَلَمَا يَتْبَعُ الذَّنْبُ أَعْظَمَ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا عَمِلْتَهُ: قِلَّةُ حَيَائِكَ مِمَّنْ عَلَىٰ الْيَمِيْنِ وَعَلَىٰ الشِّمَالِ، وَأَنْتَ عَلَىٰ الذَّنْبِ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ، وَضِحْكُكَ وَأَنْتَ لاَ تَدْرِي مَا اللهُ صَانِعٌ بِكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ، وَفَرَحُكَ بِالذَّنْبِ إِذَا ظَفِرْتَ بِهِ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ؛ وَحُزْنُكَ عَلَىٰ الذَّنْبِ إِذَا فَاتَكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ، وَخَوْفُكَ مِنَ الرِّيحِ إِذَا حَرَّكَتْ سِتْرَ بَابِكَ وَأَنْتَ عَلَىٰ الذَّنْبِ، وَلا يَضْطَرِبُ فُؤَادُكَ مِنْ نَظَرِ اللهِ

---

(١) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٣٠٨).

(٢) الْمُوبِقَات: الْمُهْلِكَات.

(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ (٦٤٩٢).

إِلَيْكَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ، وَيْحَكَ هَلْ تَدْرِي مَا كَانَ ذَنْبُ أَيُّوبَ فَابْتَلاهُ بِالبَلاءِ فِي جَسَدِهِ وَذَهَابَ مَالِهِ اسْتَغَاثَ بِهِ مِسْكِيْنٌ عَلَىٰ ظَالِمٍ يَدْرَؤُهُ عَنْهُ، فَلَمْ يُعْنْهُ، وَلَمْ يَنْهَ الظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ، فَابْتَلاهُ اللهُ» (١).

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ ـ رَحِمَهُ اللهُ ـ:

(قَدْ أَخْرَجَ اللهُ ـ سُبْحَانَهُ ـ الأَبَوَيْنِ مِنَ الجَنَّةِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ارْتَكَبَاهُ وَخَالَفَا فِيْهِ نَهْيَه، وَلُعِنَ إِبْلِيسُ وَطَرَدَهُ وَأَخْرَجَهُ مِنْ مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بِذَنْبٍ وَاحِدٍ ارْتَكَبَهُ، وَخَالَفَ فِيْهِ أَمْرَهُ، وَنَحْنُ مُعَاشِرَ الحَمْقَىٰ كَمَا قِيْلَ:

تَصِلُ الذُّنُوْبَ إِلَىٰ الذُّنُوْبِ وَتَرْتَجِيْ
دَرَجَ الْجِنَانِ لَـذِيْ النَّعِيْمِ الْخَالِدِ
وَلَقَدْ عَلِمْنَاْ أَخْـرَجَ الأَبَـوَيْـنِ مِنْ
مَلَكُوْتِهَا الأَعْـلَىٰ بِذَنْبٍ وَاحِـدِ(٢)
وَنَـسِـيْـتَ أَنَّ اللهَ أَخْــرَجَ آدمَ
مِنْهَا إِلَىٰ الـدُّنْـيَا بِـذَنْـبٍ وَاحِـدٍ

---

(١) «صَحِيْحٌ» رَوَاهُ أَبو نَعِيْم (١٠/ ٢٧٨).
(٢) (الدَّاءُ والدَّوَاءُ) (ص ١٠٠ - ١٠١).

فِهرِس

فِهرِس